هيرمان هيسه

الرحلة إلى الشرق

رواية



بما أنه كان لي نصيب المساهمة في تجربة عظيمة، ولما كان لي حسن حظ الانتماء إلى «الرابطة» والمشاركة في الرحلة الفريدة، التي تألق سحرها كالشهاب ثم غرق، بعدها، في النسيان، وحتى في سوء السمعة، فلقد قررت الآن أن أحاول القيام بوصف موجز لتلك الرحلة اللامعقولة. لم يغامر أي إنسان منذ أيام هيغو ورولاند المجنون برحلة كهذه، حتى أيامنا الاستثنائية هذه، الفترة المشوشة والمليئة بالمشاكل وهي الفترة الخصبة اللاحقة بالحرب العظمى.

لم تكن لدي أية أوهام حول المصاعب التي ستواجه محاولة كهذه. إنها مصاعب عظيمة وهي ليست ذاتية فقط على الرغم من أن المصاعب الذاتية نفسها وافرة جداً. إذ ليس فقط أنني لم أعد أملك التذكارات والدلائل والوثائق واليوميات المتعلقة بالرحلة، بل إنه في سنوات الشقاء الصعبة والمرض والهم العميق التي انقضت منذ ذلك الحين ضاع الكثير من ذكرياتي. ونتيجة لضربات القدر والإحباط المستمر فإن ذاكرتي قد بليت وكذلك ثقتي بهذه الذكريات الحية القديمة. ولكن بمعزل عن هذه الملاحظات الشخصية المجردة، أحس أنني معاق بسبب قسمي السابق للرابطة، فعلى الرغم من أن هذا القسَم يسمح بالكشف غير المحدود عن تجاربي الشخصية غير أنه يمنعني من إفشاء أي شيء عن الرابطة ذاتها. وعلى الرغم من أن الرابطة، كما يبدو، لم يعد لها وجود ملموس منذ فترة طويلة، وأنني لم أر أياً من أعضائها مرةً ثانية، فإنه ما من وعد أو وعيد في العالم سوف يجعلني أحنث بقسمي. بل على العكس من ذلك! إذا حدث لي أن وقفت اليوم أو غداً أمام مجلس عسكري وكان أمامي الخيار بين الموت وبين إفشاء سر الرابطة فإنني، بغبطة، سوف أوقع على قسَمي للرابطة بالموت.

ويمكن ملاحظة أنه منذ نشر يوميات الكونت كيسيرلنغ، ظهرت عدة كتب أوحى فيها الكتاب، بلا وعي حيناً، ولكن بشكل مقصود حيناً آخر، أنهم أخوة للرابطة وأنهم قد شاركوا في «الرحلة» إلى الشرق. وبالمصادفة حتى أوصاف أوسيندوسكي لرحلته الخطرة تقع في دائرة هذا الشك المبرر، لكنها لا تمتُّ بصلة إلى الرابطة أو إلى «رحلتنا إلى الشرق»، أكثر مما يمت قسس طائفة منافقة بصلة إلى «المخلّص» و«الحواريين» و«الروح القدس» التي يستشهدون بها من أجل امتياز خاص وادعاء انتماء. وحتى إذا كان الكونت كيسيرلنغ قد أبحر حول العالم بطمأنينة،

وإذا كان أوسيندوسكي قد اجتاز البلدان التي وصفها، إلا أن رحلاتهما لم تكن مهمة ولم يكتشفا أية أراض جديدة، بينما نحن، في مراحل معينة من رحلتنا إلى الشرق، وعلى الرغم من التخلي عن المساعدات الشائعة عن السفر الحديث كالسكك الحديدية والبواخر والبرقيات والسيارات والطائرات وغيرها، فقد انغمرنا في كل ما هو بطولي وساحر.

كان الأمر بعد الحرب العظمى بقليل، وكانت عقائد الأمم المقهورة في حالة استثنائية من اللاواقعية، كان هناك استعداد للإيمان بأشياء تتجاوز الواقع وذلك على الرغم من أن عقبات قليلة قد تم تذليلها فعلياً، وأن نقلات قليلة إلى الأمام قد تمت في مجال العلاج النفسي المستقبلي. كانت رحلتنا في ذلك الحين عبر «بحر القمر» إلى فاماغوستا تحت قيادة ألبرت العظيم، أو قبل اكتشاف «جزيرة الفراشة» على بعد اثني عشر فرسخاً من زيبانغو، أو احتفال الرابطة اللاهب على قبر روديجر، تلك كانت الأعمال والخبرات التي خص بها أناس لمرة واحدة فقط في عصرنا وعالمنا.

أرى أنني أصطدم الآن بواحدة من أهم العقبات في روايتي، فالذرى السامية التي وصلت إليها أفعالنا، والسمو الروحي للتجربة التي كانت منها هذه الأفعال، كان من الممكن جعلها نسبياً أقرب إلى إدراك القارئ لو سمح لنا أن نكشف له عن جوهر سر الرابطة، لكن الكثير، وربما كل شيء، سيظل غير قابل للتصديق أو الفهم بالنسبة إليه. التناقض وحده هو ما يجب قبوله دائماً، وهو أن المستحيل يجب أن تتم المحاولة معه دائماً. إنني أتفق مع سدهارتا صديقنا الحكيم من الشرق، الذي قال مرة: «الكلمات لا تعبر عن الأفكار جيداً. فكل شيء يصبح بغتة مختلفاً قليلاً، ومشوشاً قليلاً، وأحمقَ قليلاً. إلا أن ما يريحني ويبدو لي صحيحاً هو أن ما يراه إنسان ما قيماً وحكيماً يراه آخر هراء».

فحتى قبل قرون كان أعضاء رابطتنا ومؤرخوها قد أدركوا هذه المشكلة وواجهوها بشجاعة. وقد عبّر عنها واحد من عظمائهم بشعر خالد:

«ذاك الذي يرحل بعيداً سيرى غالباً

الأشياء وقد ابتعدت كثيراً

عما كان يعتقد أنه الحقيقة،

وحين يتحدث عنها في حقول وطنه

سيُتهم، غالباً، بالكذب

لأن العنيدين لن يصدقوا

ما لا يرونه ويحسونه مباشرة.

أعتقد أن انعدام الخبرة

سيجعل أغنيتي لا تلاقي

إلا القليل من التصديق».

وانعدام الخبرة هو الذي أبرز الحالة التي صارت فيها رحلتنا، التي سبق أن نقلت الآلاف إلى حالة النشوة، ليس فقط منسية من قبل الناس، بل إن تحريماً فعلياً قد فُرض على تذكرها. والتاريخ غني بأمثلة من هذا النوع. فتاريخ العالم كله يبدو لي غالباً أكثر من كتاب مصور يقدم صوراً لرغبة الإنسانية الأقوى والحمقاء، الرغبة في النسيان. ألا يحاول كل جيل، بوسائل القمع والإخفاء والسخرية، أن يمحو ما كان الجيل السابق يعتبره مهماً جداً؟ أو لم تكن لنا، للتو تجربة أن حرباً ضارية رهيبة قد نسيت وحرفت وصُرف النظر عنها في كل بلد؟ أو ليست هذه البلدان، بعد أن نالت قسطاً صغيراً من الراحة، هي البلدان ذاتها التي تحاول أن تتذكر عن طريق روايات الحرب المثيرة ما تسببت به هي نفسها وعانت منه منذ سنوات قليلة؟ وبالطريقة ذاتها سيأتي يوم إعادة الاكتشاف لأعمال رابطتنا وأحزانها، التي إما أنها الآن منسية أو أنها مادة للضحك في العالم، وبالتالي فإن ملاحظاتي ستقدم إسهاماً صغيراً لها.

كانت إحدى ميزات «الرحلة إلى الشرق» هي أنه على الرغم من أن الرابطة كان تطمح إلى أهداف محدودة جداً ولطيفة جداً من هذه الرحلة، (الأهداف من جملة الأسرار، ولذلك لا يمكن الكشف عنها) إلا أن كل عضو كان يمكنه أن تكون له أهدافه الخاصة، والحقيقة أنه لولا هذه الأهداف لما ضُم إلى الفريق. إن كل منا، على الرغم من مشاركته في الأهداف والمثل المشتركة، كان قد تربى وارتاح مع حلم طفولته الأثير في أعماق قلبه كمصدر لقوته الداخلية وراحته. كان هدفي الشخصي من الرحلة، الذي سألني عنه الرئيس قبل قبولي في الرابطة، هدفاً بسيطاً. غير أن أعضاء عديدين في الرابطة قد حددوا لأنفسهم أهدافاً، على الرغم من أنني كنت أحترمها، إلا أنني لم أفهمها تماماً. مثلاً كان واحد منهم يبحث عن كنز. ولم يكن يفكر في شيء إلا الحصول على كنز كبير كان يسميه «تاو». وكان آخر يحمل فكرة الإمساك بأفعى محددة كان يعزو إليها قدرات سحرية وكان يسميها (كونداليني). أما أنا فكان هدف رحلتي وحياتي، والذي كان يلون أحلامي منذ أواخر ولدنتي. أن أرى الأميرة الجميلة فاطمة، وإذا أمكن، أن أفوز بحبها.

وحين كان لي حظ حسن حظ الالتحاق بالرابطة – وكان هذا بعد

الحرب العظمى مباشرة – كانت بلادنا ملأى بالمخلِّصين والأنبياء والحواريين، وبالشعور المسبق بنهاية العالم، أو بالآمال بولادة فجر (إمبراطورية ثالثة). وكان شعبنا، الذي مزقته الحرب والغارق في اليأس نتيجة الحرمان والجوع، والمتحرر نهائياً من أوهامه حول العبثية الواضحة في التضحيات بالدم والأملاك وانعدام جدواها كافة. كان شعبنا عرضة لأوهام عديدة، ولكن في الوقت ذاته تحققت خطوات عديدة في طريق التقدم الروحي الحقيقي، كانت هناك تجمعات الرقص الباكانالي وجمعيات تجديد العماد وكان هناك تتالٍ لأشياء يأتي واحدها بعد الآخر، وكان يبدو أنها تشير إلى ما هو مدهش وإلى ما وراء الحجب. وكان هناك في ذلك الوقت أيضاً ميل واسع الانتشار إلى الألغاز الهندية والفارسية القديمة والألغاز والأديان الشرقية الأخرى. وهذا كله كان يمنح الناس انطباعاً بأن رابطتنا القديمة واحدة من الطوائف الناشئة حديثاً، وأنه بعد سنوات قليلة سوف تكون هي الأخرى شبه منسية ومحتقرة ومسفهة ولا يستطيع المخلصون من حوارييها أن يجادلوا في هذه المسألة.

بكم من الوضوح أتذكر تقديم نفسي، بعد انقضاء سنة اختباري، أمام (العرش السامي). وبعد كشف الهدف من الرحلة إلى الشرق لي وبعد أن كرست نفسي، جسداً وروحاً، لهذا المشروع، طُلب إليّ بلطف أن أحدد ما كنت آمل أن أحققه شخصياً من هذه الرحلة إلى المملكة الأسطورية. اعترفت بصراحة ودون تردد، وأنا أتلون قليلاً أمام المسؤولين المجتمعين، أن رغبتي القلبية هي السماح لي برؤية (الأميرة فاطمة). قام الناطق، وهو يشرح إشارتي، بوضع يده بلطف على رأسي ونطق بالعبارة التي صادقت على قبولي عضواً في الرابطة. قال «أنيمابيا». ودعاني لأن أكون ثابتاً في إيماني، صابراً على الجوع، وأن أحب زملائي من البشر. أقسمت قسمي، بعد أن دُرِّست جيداً خلال سنة اختباري، وهجرت العالم وسخافاته، ووضعت خاتم الرابطة في إصبعي من أجل الكلمات المأخوذة من أجمل فصول تاريخ رابطتنا:

على الأرض وفي الجو، في الماء وفي النار

الأرواح خاضعة تابعة له

نظرته تخيف أكثر الوحوش ضراوة وتروضها

وحتى عدو المسيحية يجب أن يتوجه إليه

برهبة... إلخ

ولسعادتي العظيمة، فور قبولنا في الرابطة قيل لنا، نحن المستجدين،

ما ينتظرنا. فمثلاً باتباع توجيهات المسؤولين للالتحاق بإحدى المجموعات، المؤلفة كل منها من عشرة أشخاص يجوبون البلاد للانضمام إلى بعثة الرابطة، توضح لي فوراً واحد من أسرار الرابطة. وأدركت أنني قد التحقت برحلة حج إلى الشرق، رحلة حج وحيدة ومحددة ظاهرياً – ولكن في الحقيقة، وبالمعنى الواسع لها، لم تكن هذه البعثة إلى الشرق لي فقط والآن فقط، فهذا الموكب من المؤمنين والحواريين كان دائماً ودون انقطاع يتجه إلى الشرق، إلى (موطن النور). وعبر العصور كانت دائماً على هذه الطريق، نحو النور والغرابة المدهشة. وكل عضو، كل مجموعة، بل إن جمهرتنا كلها ورحلتها العظيمة لم تكن إلا موجة في الجدول الأبدي من الكائنات البشرية، من الكفاحات الأبدية للروح البشرية نحو الشرق، نحو الموطن، اخترقت المعرفة عقلي كشعاع من النور. وذكرتني فوراً بعبارة تعلمتها خلال عامي الابتدائي، وكانت تثير في الغبطة العظيمة دائماً أن أدرك أهميتها الحقيقية، وكانت عبارة للشاعر نوفاليس «إلى أين نحن ذاهبون حقاً؟ إلى الموطن دائماً».

في هذه الأثناء كانت مجموعتنا قد بدأت ترحالها، وسرعان ما التقينا بمجموعات أخرى، ومنحنا الشعور بالوحدة وبالهدف المشترك سعادة متزايدة. وانصياعاً للتعليمات المعطاة لنا عشنا كحجاج ولم نستفد من تلك الخدع التي تنبثق من عالم ضلله المال والزمن والأرقام وتجفف الحياة من كل معنى. ودخلت الخدع والأدوات الميكانيكية كالسكك الحديدة والساعات وما شابه إلى القائمة. كما جعلتنا قاعدة مهمة غامضة أخرى نقوم بزيارة كل الأماكن والتجمعات التي تمتُّ بصلة إلى التاريخ القديم لرابطتنا ومعتقداتها وتقديم فروض الطاعة كلها. قمنا بزيارة الأماكن والنصب المقدسة كافة وتعبدنا لها، وكذلك الكنائس والمذابح بالزهور، وقدمت فروض الاحترام للخرائب بالأغاني والتأملات الصامتة، وثم إحياء ذكرى الموتى بالموسيقى وبالصلوات. ولم يمكن أمراً غير عادي أن يسخر منا أو يزعجنا الجاحدون. ولكن كان يحدث كثيراً أيضاً أن يباركنا الكهنة وأن يدعونا لزيارتهم وأن ينضم إلينا الأطفال ويتعلموا منا الأغاني، ثم يراقبونا ونحن نغادرهم والدموع ملء عيونهم، وأن يدلنا عجوز على آثار منسية، أو أن يحكي لنا أسطورة عن منطقته، وأن يماشينا الشبان جزءاً من الطريق ويبدوا رغباتهم في الانضمام إلى الرابطة. وكنا نقدم لهؤلاء النصائح ونعلمهم الطقوس الأولى وممارسات المستجدين.

تعرفنا على الغرائب الأولى، من خلال رؤيتها بعيوننا أحياناً، وأحياناً أخرى من خلال حكايات وأساطير مفاجئة. ذات يوم حين كنت ما أزال

عضواً جديداً تماماً ذكر أحدهم بغتة أن (أغرامانت) العملاق ضيف في خيمة رؤسائنا، وأنه كان يحاول إقناعهم أن يحولوا طريقهم إلى أفريقيا لكي يقوموا بتحرير بعض أعضاء الرابطة من الأسر عند المغاربة. وفي مرة أخرى رأينا (غوبلن)، صانع القير، والمعزّي، وافترضنا أننا يجب أن نتوجه إلى (القدر الأزرق). إلا أن أول ظاهرة غريبة رأيتها بعيني كانت حين توقفنا للصلاة والراحة في معبد قديم نصف مهدم في منطقة شبيشندروف، فعلى الجدار الوحيد غير المهدم من المعبد كانت صورة كبيرة مرسومة للقديس كريستوفر، وعلى كتفه يجلس (المخلص الطفل)، صغيراً ونصف ممحو بفعل الزمن. ولم يقترح الرؤساء، كعادتهم أحياناً، الوجهة التي سنتوجه إليها، بل دعونا جميعاً لإبداء رغبة أو مشورة، لكن واحداً منا أشار إلى اليسار وطلب بإلحاح أن نختار هذا الطريق. بقينا صامتين جميعاً وانتظرنا قرار رؤسائنا، وعندها رفع القديس كريستوفر ذراعه التي تمسك بالعصا الطويلة الغليظة وأشار إلى اليسار حيث رغب أخونا أن يذهب. كنا نرقب في صمت، والتفت رؤساؤنا إلى اليسار وساروا على ذاك الطريق فتبعناهم بسرور كبير.

لم نكن قد مشينا كثيراً في طريقنا في (سوابيا) حتى كانت قوة، لم نكن قد فكرنا بها، قد صارت ملحوظة. شعرنا بتأثيرها الكبير لفترة دون أن نعرف تماماً ما إذا كانت عدائية أم صديقة.

كانت تلك قوة حراس التاج الذين، منذ الأزمنة القديمة، كانوا يحافظون على ذكرى (هوهنشتوفن) في تلك البلاد وعلى ميراثه. ولا أعرف ما إذا كان رؤساؤنا يعرفون عنه أكثر من ذلك، أو ما إذا كانت لديهم أية تعليمات بخصوصه. أعرف، فقط، أننا تلقينا كثيراً من التنبيهات والتحذيرات منهم، كما حدث حين قابلنا محارباً عجوزاً وقوراً على الهضبة في الطريق إلى بوفنجن، هز رأسه الأشيب وعيناه مغمضتان، ثم اختفى دون أن يترك أثراً.

وانتبه رؤساؤنا إلى التحذير، فرجعنا ولم نذهب إلى بوفنجن. ومن جهة أخرى حدث في جوار أوراك أن ظهر في خيمة رؤسائنا مبعوث من حراس التاج وكأنه نبع من أعماق الأرض. ووحاول بالوعد والوعيد إقناعهم بوضع بعثتنا في خدمة الـ(ستاوفن) والقيام بالاستعدادات لغزو صقلية. وحين رفض الرؤساء هذا الطلب بإصرار قال إنه سيستنزل لعنة رهيبة على الرابطة وعلى بعثتنا. والحقيقة أنني أقدم ما يدور من همس بيننا. فالرؤساء من خلال علاقاتنا غير المؤكدة مع حراس التاج والتي جعلت لرابطتنا سمعة غير مستحبة، لفترة طويلة، مفادها أننا جماعة سرية

تهدف إلى إعادة الملكية.

وذات مرة كانت لي تجربة رؤية واحد من رفاقي يضمر شكوكاً، لقد خنث بيمينه وانتهى إلى الجمود. كان شاباً أحببته كثيراً. وكان دافعه الشخصي للانضمام إلى البعثة المتجهة إلى الشرق هو رغبته في رؤية تابوت النبي محمد، الذي كان يقول أنه يستطيع بقوة السحر أن يصعد منه بحرية إلى الجو. وفي إحدى البلدات السوابية والألمانية الصغيرة التي توقفنا فيها لعدة أيام، لأن معارضة زحل والقمر أوقفت مسيرنا، التقى ذلك الرجل التعيس، الذي كان يبدو حزيناً وقلقاً منذ فترة، بأحد أساتذته السابقين وكان قد ظل متعلقاً به منذ أيام الدراسة. ونجح هذا الأستاذ في جعل الشاب مرة أخرى، يرى قضيتنا بالضوء الذي ينظر من خلاله الجاحدون. وبعد إحدى الزيارات إلى الأستاذ عاد المسكين إلى مخيمنا في حالة رهيبة من الإثارة ووجهه مشوه. وأحدث صخباً وهياجاً أمام خيمة الرؤساء. وحين خرج الناطق صرخ في وجهه غاضباً بأنه ملّ من تقطيع الرحلة أياماً لاعتبارات فلكية غبية، وهو أكثر من قرف من البطالة ومن التجاوب الطفولي ومن الاحتفالات الزهرية ومن تعليق الأهمية على السحر ومن الخلط بين الحياة والشعر. إنه سيقوم بإلقاء الخاتم بين أقدام الرؤساء ويرحل عائداً على سكة الحديد الآمنة إلى بيته وإلى عمله النافع. كان مشهداً بشعاً ومحزناً. كللنا الخجل وفي الوقت نفسه أحسسنا بالشفقة على هذا الرجل الضال. أصغى الناطق إليه بلطف، وانحنى مبتسماً على الخاتم المرمي، ثم قال بصوت هادئ مشجع لا بد أنه أخجل الرجل الصاخب: «لقد ودعتنا وستعود إلى سكة الحديد وإلى الحصافة والعمل النافع. لقد ودعت الرابطة والبعثة إلى الشرق، وودعت السحر والمهرجانات الزهرية والشعر. أنت في حل من قسمك».

- ومن القسم على الصمت؟ سأل الفارّ.

- نعم ومن القسم على الصمت. أجاب الناطق. تذكر أنك أقسمت أن تصمت عن سر الرابطة أمام الجاحدين. وكما نرى أنك قد نسيت السر فإنك لن تكون قادراً على إفشائه لأحد.

- أنسيت شيئاً؟ أنا لم أنسَ شيئاً. صرخ الشاب، ولكنه صار غير واثق. وحين أدار الناطق ظهره وانسحب إلى الخيمة اندفع، بغتة، يركض مبتعداً بسرعة.

كنا حزانى ولكن الأيام كانت حافلة بالأحداث حتى أنني سرعان ما نسيته. ولكن حدث في وقت لاحق، حين لم يعد أحد منا يفكر فيه، أن

سمعنا أهالي عدة قرى ومدن عبرناها يتحدثون عن الشاب نفسه. كان هناك شاب (ووصفوه بدقة وذكروا اسمه) يبحث عنا في كل مكان. في البدء قل إنه ينتمي إلينا وأنه قد تأخر عن الرحلة وضل طريقه. ثم بدأ يبكي ويقر بأنه لم يكن أميناً معنا. وأنه قد هرب. إلا أنه قد أدرك الآن أنه لم يعد يستطيع العيش خارج الرابطة، وأنه يرغب في، بل ويجب، أن يعثر علينا لكي يركع على ركبتيه أمام الرؤساء ويرجو السماح. سمعنا هذه القصة تحكى هنا وهناك وفي كل مكان. أينما كنا نذهب يكون الرجل التعيس هناك قبل قليل. وسألنا الناطق عن رأيه في الموضوع وعن الحل فقال بإيجاز: «لا أظن أنه سيعثر علينا».

ولم يجدنا فعلاً. ولم نره بعدها.

وذات مرة، حين اختلى بي أحد الرؤساء لمحادثة خاصة، استجمعت شجاعتي وسألته كيف جرت الأمور مع هذا الأخ المرتد. وقلت له إنه على الرغم من كل شيء فإنه كان نادماً وهو يبحث عنا. لا شك أنه في المستقبل سيكون أشد أعضاء الرابطة ولاءً. فقال الرئيس: «لا بد أن نكون سعداء إذا وجد طريق العودة إلينا، لكننا لا نستطيع أن نعينه. لقد صعّب الأمر على نفسه كثيراً، بحيث أنه لن يستعيد الإيمان. أخشى أنه لن يرانا ولن يتعرف علينا حتى لو مررنا قربه. لقد صار أعمى. الندم وحده لا يكفي. الرحمة لا تُشترى بالندم. إنها لا تُشترى أبداً. لقد حدث الأمر ذاته لكثيرين غيره.

رجال عظماء ومشهورون لاقوا المصير ذاته الذي لاقاه هذا الشاب. في شبابهم ظهر لهم النور مرة، رأوا النور وتبعوا النجم، ولكن عند ذلك جاء العقل وزيف العالم. ثم جاء ضعف القلب والفشل الظاهري، ثم جاء التعب والتحرر من الوهم. فضّلوا طريقهم من جديد وعادوا، من جديد، عمياناً. بعضهم قضوا بقية أعمارهم وهم يبحثون عنا، لكنهم لم يستطيعوا أن يجدونا. وعندها قالوا للعالم إن رابطتنا ليست إلا أسطورة جميلة وإن على الناس ألا ينخدعوا بنا. وبعضهم صاروا من أعدائنا الألداء. وصاروا يحقّرون الرابطة ويوجهون لها الأذى بكل طريقة ممكنة».

كانت هناك أيام احتفالية مدهشة كلما التقينا بأطراف أخرى من عناصر الرابطة في طريقنا. أحياناً كنا نشكل مخيماً يضم المئات وحتى الآلاف. ولم تكن البعثة، في الحقيقة، تتقدم بأي نظام ثابت. كان كل شخص يتحرك في الاتجاه نفسه وفي أرتال مغلقة تقريباً. وعلى العكس من ذلك كانت عدة جماعات تتحرك معاً وكل منها تتبع رؤساءها ونجومها. وكل

منها مستعدة دائماً للانضمام إلى وحدة أكبر والانتماء إليها لفترة، ولكنها مستعدة بالقدر ذاته للانفصال من جديد. بعضها كان يتابع طريقه منفرداً. وأنا نفسي كنت أمشي وحدي أحياناً، وكلما ظهرت إشارة أو دعوة تغريني بأن أمشي في طريقي الخاص.

أتذكر مجموعة صغيرة منتقاة ارتحلنا معها وخيمنا عدة أيام. كانت هذه المجموعة قد تعهدت بتحرير بعض الأخوة الأسرى من أعضاء الرابطة والأميرة إيزابيلا من أيدي المغاربة.

ولقد قيل إن لديها بوق هيغو. وكان بين أعضائها أصدقائي الشاعر لوسشر والفنانان كلينغسور وبول كلي. ولم يكونوا يتحدثون إلا عن أفريقيا والأميرة الأسيرة، وكان إنجيلهم كتاب مآثر دون كيشوت الذي رأوا أن يشقوا طريقهم عبر إسبانيا على شرفه.

وكان مما يبعث على السرور، كلما التقينا بإحدى الجماعات، الانضمام إلى مآدبهم وعباداتهم ودعوتهم لمشاركتنا مآدبنا وعباداتنا، والاستماع إلى مآثرهم وخططهم ومباركتهم والتعرف إليهم عند الوداع. كانوا يتابعون طريقهم ونتابع نحن طريقنا. كان لكل منهم حلمه الخاص ورغبته وأمنية قلبه السرية، إلا أنهم يتدفقون معاً في الجدول الكبير وكل منهم ينتمي إلى الآخر. ويشتركون في الاحترام ذاته وفي الإيمان ذاته. وقد أقسموا القسم ذاته. التقيت بجوب، الساحر، الذي كان يأمل أن يجد أعظم سعادة في حياته في كشمير. والتقيت بلويس الرهيب الذي كان يحلم بزرع غابة زيتون في الأرض المقدسة وباقتناء عبيد. كان يسير جنباً إلى جنب مع أنسليم، الذي كان يبحث عن قوس قزح طفولته الأرجواني. التقيت بنينون التي كانت تعرف باسم «الغريبة» وأحببتها. كانت عيناها الداكنتان تلتمعان تحت شعرها الأسود. وكانت تغار من فاطمة، أميرة أحلامي، إلا أنها ربما كانت هي فاطمة نفسها دون أن أعرف. وكلما انطلقنا، كذلك انطلق ذات مرة حجاج وأباطرة وصليبيون لتحرير نعمة المخلص أو لدراسة السحر العربي. لقد سار على هذه الطريق فرسان إسبان كما سار عليها بحاثة ألمان ورهبان إيرلنديون وشعراء فرنسيون.

أما أنا، الذي لم تكن حرفتي إلا عازف كمان وراوي قصص، فكنت مسؤولاً عن عزف الموسيقى لمجموعتنا. واكتشفت عندئذ كم يعلينا الوقت الطويل الذي يكرس للتفاصيل ويزيد من قوتنا. لم أكن أعزف على الكمان وأوجه الجوقة فقط بل كنت أجمع الأغاني والأناشيد القديمة أيضاً. كتبت مقاطع وأغنيات لستة أصوات أو ثمانية ونفذتها، لكنني لن أحكي لكم

تفاصيل ذلك.

كنت مولعاً جداً بالعديد من رفاقي ورؤسائي، ولكن أحداً منهم، بالنتيجة، لم يستولِ على أفكاري بقدر ما استولى عليها ليون، على الرغم من أنه في ذلك الحين لم يكن ملحوظاً بيننا. كان ليون أحد خدمنا (الذين كانوا متطوعين بالطبع مثلنا). كان يساعد في نقل الحقائب، وكثيراً ما كان يعين لخدمة الناطق الشخصية. هذا الرجل البسيط كان فيه شيء مريح جداً، شيء غير فضولي يشع من حوله ويجعل كل إنسان يحبه. كان يقوم بعمله بمرح وهو عادةً يغني ويصفر حينما يمر بك. ولم يكن يرى أبداً إلا عند الحاجة إليه - في الحقيقة هو خادم مثالي. كان يصحبنا دائماً كلب أو غير ذلك ينضم إلينا بسبب ليون. كان يستطيع تدجين العصافير أو جذب الفراشات إليه، وكان طموحه في مفتاح رموز سليمان الذي سيمكنه من فهم لغة العصافير التي جذبته إلى الشرق. وبالمقارنة مع بعض النماذج العديدة في رابطتنا، الذين، دون أن يحطوا من قيمتها أو من صفائها، كانوا في معظمهم مبالغين وغرباء ووقورين ومتعصبين. فقد كان ليون يبدو بسيطاً وطبيعياً يشع بالعافية وودوداً دون تكلف.

وما يجعل قصتي صعبة بشكل خاص هو التفاوت الكبير بين ذكرياتي الفردية. لقد قلت لتوي إننا كنا، أحياناً، نرحل في جماعة صغيرة وأحياناً في رتل طويل وحتى في جيش. ولكنني أحياناً كنت أبقى في منطقة ما وليس معي إلا قلة من الأصدقاء أو حتى وحدي أحياناً أخرى، دون خيمة ودون رؤساء ودون ناطق. وتزداد حكايتي صعوبة لأننا لم نكن نتجول في المكان فقط، بل وفي الزمان. كنا نحرك نحو الشرق، لكننا كنا ننتقل أيضاً إلى العصور الوسطى والعصر الذهبي. كنا نتجول في إيطاليا أو سويسرا، ولكننا في الوقت ذاته، أحياناً، كنا نقضي ليلة في القرن العاشر ونعاشر البطاركة أو الجنيات. وفي الأوقات التي كنت أقضيها وحيداً كثيراً ما كنت أجد أماكنَ وأناساً من ماضيِ الخاص. تجولت مع خطيبتي السابقة في أطراف الغابة على ضفة الراين الأعلى، وسكرت مع أصدقاء الصبا في توبنجين أو بازل أو فلورنسا، أو كنت أعود صبياً اذهب مع زملاء الدراسة لاصطياد الفراشات أو للتفرج على القضاعة، أو تكون صحبتي من الشخصيات التي أحببتها في كتبي: المنصور وبارسيفال، فيتيكو أو غولدموند، يركبون إلى جانبي - أو سانشوبانزا، أو أن نحل ضيوفاً في بار ميكيديس. حين عدت إلى مجموعتي في واد من الوديان وسمعت أغنيات الرابطة وخيمت قرب خيام الرؤساء توضح لي فوراً أن ردتي إلى الطفولة وركوبي مع سانشو كانا متعلقين أساساً بهذه الرحلة. ذلك لأن هدفنا لم

يكن الشرق وحده. أو أن الشرق لم يكن مجرد بلاد أو شيء جغرافي، بل كان وطن الروح وشبابها. كان (الشرق) في كل مكان ولم يكن في أي مكان. إنه وحدة الأزمنة كلها. لكنني لم أعِ هذا إلاّ للحظة، وهنا يكمن سبب سعادتي الكبرى في ذلك الحين. وحين فقدت هذه السعادة فيما بعد فهمت تماماً هذه الروابط دون أن أجني منها أية منفعة أو راحة. حين يضيع شيء ثمين ولا يمكن استرداده نحس أننا قد استيقظنا من حلم، وكان هذا الشعور في حالتي صحيحاً بشكل غريب لأن سعادتي كانت تنبع فعلاً من حرية تجريب كل شيء يمكن تصوره في وقت واحد، واستبدال الخارجي بالداخلي بسهولة، وتحريك الزمان والمكان كمشاهد في مسرح. وبينما كنا، نحن الأخوة في الرابطة، نتجول في العالم دون سيارات أو سفن ونحوله إلى فردوس كنا نستحضر الماضي إبداعياً، وكذلك المستقبل والخيال إلى اللحظة الحاضرة.

ومرة بعد أخرى في سوابيا أو في بودنسي أو في سويسرا أو في أي مكان آخر كنا نقابل أناساً يفهموننا، أو يكونون ممتنين بطريقة ما لأننا نحن ورابطتنا ورحلتنا إلى الشرق، موجودون. بين خطوط الترام وبنوك زيوريخ صادفنا (فُلك نوح) تحرسها عدة كلاب كهلة تحمل كلها الاسم ذاته. وكان يرشدها بشجاعة عبر المياه الضحلة للفترة الهادئة هانس سي، حفيد نوح، صديق الفنون. ذهبنا إلى فنترثور، ونزلنا إلى مقصورة ستوكلين السحرية، ونزلنا ضيوفاً في المعبد الصيني حيث كان حاملو البخور يتألقون تحت الماجا البرونزية، والملك الأسود يعزف على المزمار نغماً حلواً مع النغمة المرتعشة لجرس المعبد. وعند سفوح جبال الشمس صادفنا سوون مالي، مستعمرة ملك سيام، حيث قدمنا إراقتنا وبخورنا، بين البوذات الحجرية والنحاسية، كزوار شاكرين.

وكان من أجمل التجارب احتفال الرابطة في بريمغارتن. هناك أحاطت بنا الدائرة السحرية. استقبلنا ماكس وتيلي، سيدا القلعة، وسمعنا أوتمار تعزف موزارت على البيانو الكبير في القاعة الهادئة. ورأينا الأرض تغطيها الببغاوات والطيور الناطقة الأخرى. وسمعنا الجنية أرميدا تغني على النبع. وبجدائل كبيرة كان الرأس الثقيل للفلكي لونجوس يهتز إلى جانب القسمات الحلوة لهنري من أوفتردنجن. وفي الحديقة كانت الطواويس تزعق ولويس يتحادث بالإسبانية مع بوس في بوتس. بينما كان هانس ريسوم، المضطرب بشكاواه من اللعبة المقنعة في الحياة، يقسم بأنه سيقوم بالحج إلى قبر شارل العظيم. كانت إحدى الفترات البهيجة في رحلتنا. لقد جلبنا معنا موجة السحر فأظهرت كل شيء. ركع السكان

وتعبدوا للجمال. وألقى سيد القلعة قصيدة تحكي عن مآثرنا في اليوم السابق. وانسلت الحيوانات من الغابة إلى جدران القلعة. وفي النهر كانت الأسماك المتلامعة تحتشد بحيوية وتتغذى بالكعك والخمر.

إن أفضل هذه التجارب التي تستحق فعلاً أن تحكى هي تلك التي تعكس روحها. ويبدو وصفي لها يائساً وربما أحمق. لكن كل من شارك واحتفل في أيام بريمغارتن، سيؤكد كل تفصيل، وسيكمل هذه التفاصيل بمئات أخرى أكثر جمالاً. سأتذكر دائماً كيف تلامعت أذيال الطواويس حين برز القمر من بين الأشجار الطويلة، وعلى الضفة المظللة تلامعت الحوريات طرية وفضية من بين الصخور، وكيف وقف دون كيشوت وحيداً تحت شجرة الكستناء قرب النبع ليقوم بنوبة حراسته الأولى، بينما كانت آخر الشموع الرومانية في استعراض الألعاب النارية تسقط بنعومة على أبراج القلعة في ضوء القمر، ورفيقي بابلو مكلل بالزهور يعزف على الناي الفارسي القصبي أمام الفتيات. آه! من منا كان يخطر له أن الدائرة السحرية سوف تنفض بهذه السرعة أو أننا كلنا تقريباً – وأنا أيضاً، حتى أنا – سنتوه مرة أخرى في الصحاري الصامتة للواقع المرسوم مفصلاً، تماماً مثل المسؤولين وأصحاب الحوانيت الذين، بعد حفلة أو نزهة يوم أحد، يوائمون أنفسهم من جديد مع حياة الشغل.

في تلك الأيام لم يكن أي منا قادراً على التفكير في ذلك. من أبراج القلعة من بريمغارتن، كان شذى الليل يدخل إلى غرفة نومي. كنت أسمع النهر يجري بين الأشجار. صعدت من النافذة إلى أعماق الليل منتشياً بالسعادة والحنين. تسللت من وراء الفارس المكلف بالحراسة والرماة النائمين ونزلت إلى ضفة النهر، إلى المياه المترقرقة وإلى حوريات البحر البيضاوات المتلامعات. أنزلنني معهن إلى عالمهن الكريستالي البارد المضاء بالقمر حيث كن يلعبن حالمات بالتيجان وبالسلاسل الذهبية في غرف كنوزهن. بدا لي كأنني قد قضيت شهوراً في الأعماق المتألقة، إلا أنني حين خرجت وسبحت إلى الضفة منتعشاً تماماً كان ناي بابلو القصبي ما يزال مسموعاً من الحديقة البعيدة، وكان القمر ما يزال في منتصف السماء. رأيت ليون يلعب مع بودلين أبيضين ووجهه الصبياني الذكي يشع بالسعادة. ورأيت لونجوس جالساً في الغابة وعلى ركبتيه كتاب من الرق كان يكتب عليه حروفاً يونانية وعبرية وكانت الغيلان تطير من الحروف، والأفاعي الملونة تشرئب منها. لم يتطلع إليّ. استمر في رسمه غارقاً في كتابته الأفعوانية الملونة. تطلعت فترة طويلة من فوق كتفيه المحنيتين إلى الكتاب، ورأيت الغيلان والأفاعي تخرج من كتابته فتحوم حوله، ثم

تختفي بصمت في الغابة المظلمة. قلت له: «لونجوس! يا صديقي العزيز!» لم يسمعني. كان عالمي بعيداً عن عالمه. وفي عزلة تامة تحت الأشجار المكللة بضوء القمر كان أنسيلم يتجول وزهرة سوسن في يده، كان غارقاً في أفكاره يحدق في كأس الزهرة الأرجواني ويبتسم.

هناك شيء لاحظته عدة مرات خلال رحلتنا دون أن أعرفه تماماً، وقد عاد يؤثر في من جديد خلال أيام بريمغارتن بشكل غريب ومؤلم. كان بيننا كثير من الفنانين والرسامين والموسيقيين والشعراء. كان بينهم أردنت كلينغسور وهوغو وولف القلق ولوسشر الصامت وبرنتانو المرح – ولكن مهما كانت شخصيات هؤلاء الفنانين حية ومحبوبة إلا أن الشخصيات التي كانوا يتخيلونها كانت أكثر حيوية وجمالاً وسعادة؛ وبالطبع أكثر حسناً وحقيقة من الشعراء والمبعدين أنفسهم. كان بابلو يجلس مع مزماره ببراءة وغبطة ساحرتين، لكن شاعره كان ينسل مثل الظل إلى ضفة النهر بشفافية تحت ضوء القمر يبحث عن العزلة – وكان هوفمان متعثراً وشبه سكران يركض هنا وهناك بين الضيوف آخذاً الكثير، صغيراً وجنياً. وهو أيضاً، مثلهم جميعاً كان نصف حقيقي، نصفه فقط هناك. ليس مادياً تماماً وليس حقيقياً تماماً. وفي الوقت نفسه كان ليندهورست، الأرشيفي، ينشغل بالغيلان للنكتة، ينفث النار دائماً ويصرف طاقته كسيارة. سألت الخادم ليون: لماذا يبدو الفنانون أحياناً نصف أحياء بينما تبدو مخلوقاتهم حية بما لا يقبل الشك. نظر إلى ليون مستغرباً سؤالي. ثم ترك البودل الذي كان يحتضنه بين ذراعيه، وقال: «هكذا الأمهات أيضاً. حين يلدن أولادهن ويعطينهم الحليب والجمال والقوة هن أنفسهن يصبحن غير مهماتٍ وما من أحد يسأل عنهن بعد ذلك».

- ولكنه أمر محزن. قلت له دون أن أفكر كثيراً في الأمر.

- لا أظن أنه محزن أكثر من الأشياء الأخرى.

- ربما كان محزناً ولكنه جميل أيضاً.

- القانون يقضي أن يكون الأمر هكذا.

- القانون؟ سألت مستغرباً. أي قانون هذا يا ليون؟

- قانون الخدمة. من أراد أن يعيش طويلاً عليه أن يخدم طويلاً. لكن الذي يريد أن يحكم لا يعيش طويلاً.

- لماذا إذاً يجاهد الكثيرون من أجل أن يحكموا؟

- لأنهم لا يفهمون. هناك قلة ولدت لتكون قادة وهؤلاء يظلون سعداء وأصحاء. ولكن الآخرين، كلهم، الذين صاروا سادة بسعيهم ينتهون إلى لا

شيء.

- إلى أي لا شيء يا ليون؟

- إلى المصح مثلاً.

لم أفهم إلا القليل، لكن الكلمات ظلت في ذاكرتي وتركت لدي شعوراً بأن ليون هذا كان يعرف كل أنواع الأشياء، وأنه كان يعرف أكثر منا نحن الذين كنا سادته ظاهرياً.

الثاني

كان لكل مسافر في هذه الرحلة التي لا تنسى أفكاره الخاصة حول ما جعل ليون الأمين يقرر بغتة أن يتركنا وسط المدخل الخطير لوادي موربيو العميق. بعد ذلك بكثير بدأت بشكل ما أشك وأراجع ظروف هذا الحادث وأهميته العميقة. كما بدا، أيضاً أن هذا الحادث العرضي، ظاهرياً، والذي كان في حقيقته حادثاً ذا أهمية فائقة، لم يكن مصادفة أبداً، بل كان حلقة في تلك السلسلة من الأحداث التي كان من خلالها عدونا الأبدي يحاول أن ينزل الدمار بمشروعنا. في ذلك الصباح الخريفي البارد الذي اكتشفنا فيه أن خادمنا ليون مفقود وأن البحث عنه كان بلا جدوى، لم أكن الوحيد الذي تملكه الشعور، للمرة الأولى، بالمصيبة الواقعة وبالقدر النازل.

في ذلك الحين كان الموقف على هذا النحو. بعد أن اجتزنا بحرارة نصف أوروبا وجزءاً من العصور الوسطى خيمنا في وادٍ صخري ضيق جداً، ثغر جبلي وحشي على الحدود الإيطالية، ورحنا نبحث عن ليون الذي ضاع بشكل غامض. وكلما ازداد بحثنا عنه تضاءل أملنا في العثور عليه ثانية مع انقضاء النهار، وازداد حزننا لفكرة أنها ليست مجرد مسألة رجل لطيف وشعبي من بين خدمنا قد يكون وقع له حادث أو أنه هرب أو قبض عليه عدو – بل إن هذه بداية المشاكل، والإشارة الأولى لعاصفة سوف تنقض علينا.

قضينا النهار كله إلى ما بعد المغيب ونحن نبحث عن ليون. استطلعنا الثغر كله. وفيما كان هذا الجهد ينهكنا وإحساس باليأس والعبث ينمو فينا جميعاً، كان الغريب والخارق معاً أن بدأ فقدان الخادم، من ساعة إلى أخرى، يكتسب أهمية متزايدة، وبدا أن خسارتنا له تخلق لنا المتاعب. ولم يكن الأمر فقط أن كل حاج، والهيئة كلها بالطبع، قلق من أجل الشاب الأنيق اللطيف المجد، بل بدا أنه كلما ازداد غيابه يقيناً ازداد الإحساس بأنه لا يعوض، فمن دون ليون بوجهه الوسيم ومرحه اللطيف وأغنياته، ومن دون حماسه لمشروعنا العظيم، صار المشروع نفسه يبدو، بطريقة غامضة، وكأنه يفقد معناه. على الأقل هكذا شعرت بالأمر. فعلى الرغم من الإجهاد والمثبطات الصغيرة خلال الأشهر السابقة من الرحلة لم يتطرق إلي أي ضعف داخلي أو شك جدي ولو للحظة، فما من جنرال ظافر، وما من طائر في رف السنونو المتجه إلى مصر، يمكن أن يكون أكثر تأكداً من هدفه ومهمته ومن صحة أفعاله وطموحاته مما كنت في هذه الرحلة. ولكن الآن، في هذا المكان المشؤوم، وبينما كنت أسمع باستمرار النداءات والإشارات

التي يطلقها حراسنا طوال ذلك النهار الذهبي الأزرق من أكتوبر، وكنت أنتظر مرة بعد أخرى وبإثارة متزايدة وصول الأنباء، لأعاني من الإحباط وأنظر حولي إلى الوجوه الحائرة، هيمن علي شعور من الحزن والشك لأول مرة، وكلما قويت هذه المشاعر ازداد وضوحاً لدي أنني لم أفقد الإيمان في العثور على ليون ثانية فحسب، بل إن كل شيء صار يبدو لي الآن مشكوكاً فيه، وغير جدير بالثقة، لقد تهدد معنى كل شيء وقيمته: رفاقيتنا وإيماننا وقسمنا ورحلتنا إلى الشرق، وحياتنا بأسرها.

وحتى لو كنت مخطئاً في افتراض أننا كنا جميعاً نحمل المشاعر ذاتها، وحتى لو كنت بالتالي مخطئاً في تقدير مشاعري وخبراتي الداخلية وأشياء أخرى كثيرة جُربت واقعياً، بعد ذلك بكثير، ولكنها عُزيت خطأ إلى هذا اليوم، فستظل، على الرغم من كل شيء، الحقيقة الغريبة لأمتعة ليون. وعلى الرغم من أن ليون، مثلنا جميعاً، لم يكن يحمل معه إلا حقيبة كتانية على ظهره، وهي حقيبة واحدة بين ثلاثين غيرها، فقد بدا أن في هذه الحقيبة الوحيدة المفقودة بين جميع الأشياء المهمة التي كنا نحملها معنا في رحلتنا.

وإنه لضعف إنساني معروف أن يبدو أي شيء نفقده ذا قيمة مبالغ بها، وأن يبدو أقل إمكانية للتعويض من تلك الأشياء التي ما تزال بحوزتنا. ولكن على الرغم من أن كثيراً من الأغراض، التي فقدناها في ثغر موربيو وأزعجنا فقدها كثيراً، تحولت في الحقيقة، فيما بعد، أو تبين أنها غير مهمة. ومع ذلك فقد كان صحيحاً بشكل مؤسف أننا كنا في ذلك الحين قلقين، قلقاً مشروعاً، لفقدان كثير من الأشياء ذات الأهمية البالغة.

والأمر الفريد والأكثر غرابة كان أن الأغراض التي كنا نفقدها، سيان ظهرت ثانية أم لم تظهر، كانت تكتسب أهميتها على درجات. وبالتدريج كانت كل الأشياء التي كنا نظن أنها ضاعت، والتي بشكل خاطئ، كنا نفتقدها كثيراً والتي كنا، خطأ، نوليها اهتماماً شديداً، تُكتشف تدريجياً بين محفوظاتنا. وبغية التعبير بوضوح هنا عما كان حقيقياً وغير واضح في الوقت ذاته لا بد من القول إنه خلال مجريات رحلتنا البعيدة تبين أن الأدوات والأشياء الثمينة والبطاقات والوثائق التي فقدت كانت كلها، ويا للخجل، مما يعوض. وبصراحة تامة، بدا وكأن كل واحد منا قد أطلق العنان لخياله لكي يقنع نفسه بالخسارات الرهيبة التي لا تسترد، وكأنه كلاً منا كان يحاول أن يتصور أي شيء مهم بالنسبة إليه مفقوداً وأن يحزن عليه. لأحدنا جواز السفر وللآخر مصورات وللثالث رسالة تزكية للخليفة وهكذا. شيء لهذا وآخر لذاك. ومع أنه قد توضح في النهاية أن غرضاً بعد

الآخر من الأغراض التي كان يظن أنها ضائعة إما أنها لم تكن ضائعة أبداً أو أنها غير مهمة ومما يمكن تعويضه، فقد ظل شيء واحد ثميناً فعلاً وذا أهمية لا تقدر بثمن وأساسياً، وهو وثيقة لا تعوض كانت قد فُقدت حقاً وبما لا يقبل الجدل.

والآن بشكل عقيم تم تبادل الآراء حول ما إذا كانت هذه الوثيقة، التي اختفت مع الخادم ليون، قد كانت فعلاً بين أمتعتنا. وكان هناك اتفاق تام حول القيمة الكبيرة لهذه الوثيقة وأنها مما لا يمكن تعويضه. ولكن قلة قليلة بيننا (وبينها أنا نفسي) استطاعت أن تعلن بثقة أن هذه الوثيقة قد جلبت معنا في الرحلة. أكد أحدهم أن وثيقة مشابهة كانت محمولة فعلاً في حقيبة ليون الكتانية، وأن هذه ليست الوثيقة الأصلية بتاتاً، بل هي بالطبع نسخة منها. وأعلن آخرون أنه لم تنعقد النية أبداً على جلب الوثيقة أو نسخة منها في الرحلة، لأن ذلك كان سيجعل المعنى الكامل لرحلتنا عرضة للسخرية. وأدى هذا إلى جدل عنيف. وأظهر، أكثر، أنه كانت هناك آراء عديدة متناقضة تماماً حول مكان وجود الأصل (ولم يكن مهماً إن كانت لدينا النسخة أم أننا ضيعناها أم لم نضيعها) وأعلن أن الوثيقة كانت مودعة عند الحكومة في كيفهاوزر، وقال آخر بل هي مدفونة في الفرن الذي يحتوي على رماد رئيسنا الميت. وقال آخر هراء. فالوثيقة قد رسمها الرئيس بالحروف الأصلية التي يعرفها وحده، وأنها قد أحرقت مع جثة الرئيس حسب وصيته. وصارت التساؤلات حول الوثيقة الأصلية خالية من المعنى، ذلك أنه بعد موت الرئيس لم يعد من الممكن أن يقرأها أحد، ولكن كان من الضروري بالطبع التأكد من مكان وجود أربع ترجمات (قال بعضهم إنها ست) للوثيقة الأصلية، والتي تمت خلال حياة الرئيس وتحت إشرافه. وقيل إن هناك ترجمات صينية ويونانية وعبرية ولاتينية وإنها مودعة في العواصم القديمة الأربع. وقيلت آراء ووجهات نظر أخرى كثيرة. كان كثيرون متشبثين بها وآخرون كانوا مقتنعين في البدء بوجهة نظر ثم بأخرى مناقضة، ثم سرعان ما يغيرون آراءهم من جديد. باختصار منذ ذلك الحين لم يعد الاتحاد واليقين موجودين في تجمعنا على الرغم من أن الفكرة العظيمة ما تزال تبقينا معاً.

بكم من الوضوح أتذكر هذه المنازعات الأولى. لقد كانت شيئاً جديداً لم يسمع به من قبل في رابطتنا الموحدة تماماً حتى ذلك الحين. لقد سارت المنازعات باحترام وأدب. في البداية على الأقل. لم تؤدِّ في البداية إلى صراعات قاسية ولا إلى إدانات أو إهانات شخصية – كنا في البدء ما نزال أخوة متحدة لا تنفصم عراها في العالم كله. ما أزال أسمع اصواتهم،

وما أزال أرى أرض مخيمنا التي جرت عليها أول هذه الجدالات. وأرى أوراق الخريف الذهبية تتساقط هنا وهناك بين الوجوه العابسة على غير عادتها. أرى واحداً على ركبته وآخر متكئاً على قبعة. كنت أصغي، وأنا أحس بالحزن والخوف يتزايدان. ولكن وسط تبادل الآراء كلها كنت في أعماقي واثقاً تماماً مما أعتقده، واثقاً بشكل محزن من إن الوثيقة الأساسية الأصلية كانت في حقيبة ليون وإنها قد اختفت وضاعت معه. ومهما كان محزناً فإنه يظل معتقداً. وكان معتقداً ثابتاً أعطاني إحساساً بالثقة. في ذلك الحين كنت أظن فعلاً بأنني أود لو أستبدل هذه القناعة بأخرى أكثر أملاً. وفيما بعد فقط حين فقدت هذه القناعة أيضاً وصرت عرضة لأنواع الآراء كافة أدركت ما كنت أمتلكه من خلال معتقدي.

أرى أن الحكاية لا يمكن أن تحكى بهذه الطريقة. ولكن كيف يمكن حكاية هذه الحكاية عن الرحلة الفريدة وعن التجمع الفريد من العقول وعن حياة روحية مثيرة حتى الدهشة؟ كم كنت أود، لأنني واحد من آخر المتبقين من تجمعنا، لو احتفظت ببعض الوثائق عن قضيتنا العظيمة. أحس إحساس الخادم العجوز المتبقي على قيد الحياة من بلادنة شارل العظيم، الذي يتذكر سلسلة مثيرة من المآثر والعجائب، ومن الصور والذكريات التي ستختفي معه إن لم ينجح في إيصال بعضها من بعده من خلال كلمة ولوحة، حكاية أو أغنية. ولكن بأي وسيط يمكن لقصة الرحلة إلى الشرق أن تحكى؟ لا أعرف. هذه المحاولة الأولى الآن، والتي بدأت بأحسن النوايا، تقودني إلى ما لا حدود له ولا إمكانية لفهمه. لقد كنت أريد، ببساطة، أن أحاول تقصّي ما أتذكره من مجرى الحوادث والتفاصيل الفردية لرحلتنا إلى الشرق. ولم يكن هناك ما يبدو أكثر بساطة. ولكنني الآن، وأنا ما أكاد أبدأ، وهو حادث اختفاء ليون، وبدلاً من قطعة قماش فإنني أمسك بيدي كبة من ألف خيط معقدة ستشغل مئات الأيدي سنوات لحلها وتخليصها، حتى لو لم ينقطع خيط ويتلاشى بين الأصابع حالما يتم الإمساك به وسحبه.

أتصور أن كل مؤرخ يتأثر بالطريقة نفسها حين يبدأ في رواية أحداث فترة معينة ويكون راغباً في تصويرها بدقة. أين هو مركز الأحداث، والموقف المشترك، الذي تدور حوله الأحداث ويعطيها تماسكها؟ ولكي يكشف المؤرخ عن شيء مثل التماسك أو شيء كالكارثة، أو نوع من المعنى ويجعله قابلاً للرواية بطريقة ما عليه أن يخترع وحدات: بطلاً أو أمة أو فكرة، ويسمح لهذه الوحدة أن يحدث لها ما حدث في الواقع لما لا اسم له.

وإذا كان من الصعب تقديم رواية مترابطة لعدد من الأحداث التي وقعت فعلاً وصودق عليها ففي حالتي يزداد الأمر صعوبة، لأن كل شيء يصبح مدعاة للتساؤل حالما أتأمله بعناية، وكل شيء يهرب ويتلاشى حالما استطاعت مجموعتنا، والتي هي أقوى مجموعة في العالم، أن تتلاشى. ليس هناك وحدة ولا مركز ولا نقطة تدور حولها العجلة.

كانت رحلتنا إلى الشرق ورابطتنا من أساس مجموعتنا، أكثر الأشياء أهمية، بل والشيء المهم الوحيد في حياتي، أو الذي تبدو معه حياتي الشخصية الفردية بالمقارنة معه عديمة الأهمية تماماً. والآن وأنا أحاول أن أتشبث بهذا الشيء الهام وأصفه، أو أصف على الأقل جزءاً منه، يصبح كل شيء مجرد كتلة من الصور الجزئية المبعثرة التي تنعكس في شيء ما، وهذا الشيء الـ(ما) هو نفسي، وهذه النفس، هذه المرآة، كلما حملقت فيها تتبدى لا شيء إلا سطحاً خارجياً لكرة زجاجية. أبعد قلمي بنية صادقة وآمل أن أتابع غداً في أي وقت آخر، أو أن أبدأ بداية جديدة، ولكن في خلفية قصدي وأملي، وفي خلفية رغبتي الهائلة الحقيقية في تقديم قصتنا، يتبقى شك رهيب. إنه الشك الذي ظهر خلال البحث عن ليون في وادي موريبو. وهذا الشك لا يكتفي بطرح سؤال: «هل يمكن لحكايتك أن تحكى؟» بل يسأل أيضاً: «أكان من الممكن أن تجربها؟» إننا نتذكر أولئك الذين شاركوا في الحرب الكبرى والذين، على الرغم من أن الحقائق والقصص الموثقة كانت تنقصهم، لا بد من أنهم قد عانوا في بعض الأحيان من الشكوك ذاتها.

منذ أن كتبت ما مر معنا، فكرت أكثر من مرة في مشروعي وحاولت أن أجد مخرجاً من مشكلتي. لم أجد حلاً. وما أزال أواجه حالة الفوضى. لكنني قد أقسمت على ألا أستسلم. وفي لحظة تقرير هذا القسم مرت في خاطري ذكرى سعيدة كشعاع شمسي. وبدا لي أنها شبيهة، شبيهة تماماً، بما أحسست به حين بدأنا بعثتنا. في ذلك الحين كنا نسير في الظلام ظاهرياً، دون أن نعرف وجهتنا ودون أية توقعات. إلا أنه كان لدينا، في أعماقنا، شيء أقوى من الواقع والاحتمال، وهو الإيمان بمعنى عملنا وبضرورته. لقد ارتعشت لتذكر هذا الإحساس. وفي لحظة هذه الارتعاشة المباركة، صار كل شيء واضحاً، وبدا أن كل شيء ممكن مرة أخرى.

ومهما يكن فقد قررت أن أختبر إرادتي، وحتى لو كان عليّ أن أعيد بداية قصتي الصعبة عشر مرات، أو مئة مرة، وأصل دائماً إلى الطريق المسدود ذاته فسأبدأ من جديد مئة مرة أخرى. وإن لم أستطع تجميع الصور في كل منسجم من جديد، سأقدم كل جزء منفصل بمقدار ما أستطيع من الأمانة. وطالما أنه ما يزال ممكناً الآن فسأظل أتذكر المبدأ الأول في مرحلتنا العظيمة دون أن أسترخي أو أترك نفسي تحت رحمة العقل، لأنني أعرف دائماً أن الإيمان أقوى مما يسمى بالواقع.

وفي الوقت ذاته قمت بمحاولة مخلصة للاقتراب من هدفي بطريقة عملية ومعقولة. ذهبت لرؤية صديق من أيام الشباب يعيش في هذه المدينة. وهو رئيس تحرير جريدة. اسمه لوكاس. لقد شارك في الحرب الكبرى ونشر كتاباً عنها بيع على نطاق واسع. واستقبلني لوكاس بمودة. وكان من الواضح أنه قد سر لرؤية زميل الدراسة القديم من جديد. وكان لي معه حديثان طويلان.

حاولت أن أجعله يفهم وضعي. كنت أحتقر كل مراوغة. قلت له بصراحة إنني قد شاركت في ذلك المشروع العظيم، الذي سمع عنه دون شك، والذي اسمه «الرحلة إلى الشرق» أو بعثة الرابطة أو مهما كانت تسميتها عند الناس. آه. نعم. ابتسم ساخراً. لا بد من أنه تذكرها. في دائرة أصدقائه، كان الشائع أن يسمى هذا الحدث، ربما بشيء من عدم الاحترام، «حملة الأطفال الصليبية». إذ لم يكن ينظر إلى هذه الحركة بجدية في وسطه، وكانت بالفعل تقارن بنوع من الحركات أو الأخوة الثيوصوفية ومع ذلك فقد دهشوا كثيراً للنجاحات المتواترة للالتزام. وصاروا يقرأون باحترام معقول عن الرحلة الجريئة عبر (سوابيا العليا) وعن تسلق

بريمغارتن، وعن إخضاع قرية جيل تيسين، وكانوا يتساءلون أحياناً عما إذا كانت الحركة تريد أن تضع نفسها في خدمة حكومة جمهورية ما. ثم لا شك في أن المسألة كلها قد تبددت من أذهانهم. لقد خرج عدد من الرؤساء السابقين من الحركة. والحقيقة أنهم لا يرغبون في تذكرها أبداً. وصارت الأنباء عنها تأتي متفرقة جداً. وكانت دائماً أنباء متناقضة بشكل غريب. وهكذا نحيت المسألة كلها جانباً، ونسيت مثل العديد من الحركات السياسية أو الدينية أو الفنية الغريبة من سنوات ما بعد الحرب.

في ذلك الحين برز أنبياء كثيرون وظهرت جمعيات سرية عديدة بطموحات مسيحية، ثم اختفت دون أن تترك أثراً.

كانت وجهة نظره واضحة. وكانت متشككة بحسن نية. وربما كان كل من سمع بالقصة، ولم يشارك فيها بنفسه، يفكر بالطريقة ذاتها حول الرابطة وحول الرحلة إلى الشرق. ولم يكن يهمني أن أغير رأي لوكاس، لكنني صححت له بعض المعلومات. منها مثلاً أن رابطتنا لم تكن أبداً من نتاج ما بعد الحرب، بل إنها تمتد لتشمل تاريخ العالم كله. وتكون أحياناً، بالطبع، تحت السطح ولكن دون تقطع وبحيث أن بعض المراحل من الحرب العظمى لم تكن إلا مراحل من تاريخ رابطتنا. وأكثر من ذلك أن زرادشت ولاوتسي وكسينوفون وفيثاغورس والبرتوس ماغنوس ودون كيشوت وتريسترام شاندي ونوفاليس وبودلير كانوا من المشاركين في تأسيس رابطتنا أو من إخوانها. وابتسم كما توقعت تماماً.

قلت له: «حسن. لم آت هنا لأعلّمك بل لأتعلم منك. وإن لدي رغبة جارفة في أن أكتب ما ربما لن يكون تاريخاً لرابطتنا (إن جيشاً كاملاً من الباحثين المؤهلين لن يكون في وسعهم أن يقوموا بذلك) بل ربما أن أحكي ببساطة قصة رحلتنا. لكنني لم أوفق حتى في التوجه نحو الموضوع. ليست المسألة مسألة قدرة أدبية. أظن أن لدي هذا. وأكثر من ذلك ليست لدي أية طموحات في هذا المجال. لا. بل لأن الواقع الذي عشته ذات مرة، مع رفاقي، لم يعد موجوداً. وعلى الرغم من أن ذكرياته من أثمن وأعنف الذكريات التي لدي، فإنها تبدو بعيدة جداً، وهي مركبة من نوع مختلف من الخيوط، لدرجة أنها تبدو متجذرة في كواكب أخرى من ألف سنة أخرى، أو أنها كانت هلوسات».

وهتف لوكاس بصدق: «أستطيع أن أفهم ذلك». كان حديثنا قد بدأ يثير اهتمامه فقط «كم أفهم ذلك! هكذا تماماً انفعلت بتجاربي في الحرب. كنت أظن أنني عانيتها بوضوح وحيوية، وكنت على وشك الانفجار بصور

منها، وكانت بكرة الفيلم في رأسي تبدو كأنها طول أميال. ولكن حين جلست للكتابة، على كرسي وأمامي طاولة، صارت القرى والغابات المدمرة والاهتزازات الأرضية التي أحدثها القصف واختلاط الدناءة بالعظمة، والخوف بالبطولة، والأمعاء المنثورة بالرؤوس، والخوف من الموت بالمرح المقيت، بعيدة إلى درجة يصعب قياسها. صارت مجرد حلم ولم تعد مرتبطة بأي شيء ولم يعد من الممكن تصورها. أنت تعرف أنني على الرغم من ذلك قد كتبت أخيراً كتابي عن الحرب وأنه يقرأ الآن ويناقش كثيراً. ولكن أتعرف؟ لا أظن أن عشرة كتب مثله، وكل كتاب أفضل بعشر مرات وأكثر حيوية من كتابي، تستطيع أن تنقل أية صورة حقيقية عن الحرب لقارئ جاد ما لم يكن هو نفسه قد خاض الحرب، وليس هناك الكثيرون ممن فعلوا ذلك، وحتى الذين شاركوا فيها لم يكونوا قد جربوها بعد مرور وقت طويل عليهم فيها. فبعد التوق إلى تجريب شيء ليس لدى الناس توق أقوى من التوق إلى نسيانه».

صمت وبدا حائراً وتائهاً في أفكاره. لقد أكدت كلماته معاناتي وأفكاري.

وبعد مضي وقت سألته قلقاً: «وكيف تسنى لك إذاً أن تكتب الكتاب؟».

فكر للحظة ثم عاد من تأملاته وقال: «لقد كان ذلك ممكناً بالنسبة إليّ لأنه كان ضرورياً فقط. كان عليّ إما أن أكتب الكتاب أو أن أغرق في اليأس. وكان ذلك هو الوسيلة الوحيدة لإنقاذي من العدمية والتشتت والانتحار. لقد كتب الكتاب تحت هذه الوطأة وقد أمن لي العلاج الذي كنت أتوقعه، لأنه، ببساطة، قد كتب دون اعتبار لما إذا كان جيداً أم سيئاً. كان هذا هو الشيء الوحيد الذي يهم. وفي أثناء كتابته لم تكن بي حاجة إلى التفكير في أي قارئ غيري، أو، على الأكثر بزميل حرب عزيز آخر موجود هنا أو هناك. ولم أكن أفكر في ذلك الحين فيمن تبقوا على قيد الحياة، بل كنت أفكر فيمن سقطوا في الحرب. حين كنت أكتبه كنت كما لو أنني أهذي أو أنني جننت، وكأنني محاط بثلاثة أو أربعة أشخاص وجثثهم ممزقة - هكذا صدر الكتاب».

وبغتة - في نهاية محادثتنا الأولى - قال: «اعذرني. لا أستطيع أن أتحدث أكثر من ذلك عن الموضوع. ولا كلمة أخرى بعد. لا أستطيع. ولا أريد. مع السلامة».

ودفعني إلى الخارج.

في لقائنا الثاني كان قد عاد إلى هدوئه وتوازنه وعادت له الابتسامة

الساخرة ذاتها، ولكنه كان يبدو أنه يتعامل مع مشكلتي بجدية، وأنه يحاول أن يتفهمها بعمق. قدم بعض الاقتراحات التي بدت، مع ذلك، ذات نفع قليل لي. وفي نهاية المحادثة الثانية والأخيرة قال لي مصادفة تقريباً: «اسمع! إنك تعود باستمرار إلى حادثة اختفاء ليون. أنا لا أحب ذلك. تبدو الحادثة وكأنها عائق في طريقك. حرر نفسك، ضع ليون على الرف. يبدو أنه يتحول إلى فكرة ثابتة».

أردت أن أجيب أن الإنسان لا يستطيع أن يكتب أي كتاب دون أفكار ثابتة. وبدلاً من ذلك هزني بسؤال غير متوقع أبداً: «هل كان اسمه ليون فعلاً؟» قلت: «نعم، بالطبع، كان يدعى ليون».

- هل كان هذا اسمه الأول؟

تلعثمت: «لا. اسمه الأول كان... كان... لم أعد أعرف. نسيته. كان ليون اسم الكنية. هكذا كان الجميع ينادونه».

وفيما كنت أتحدث كان لوكاس قد أمسك بكتاب ضخم من مكتبه وراح يقلب صفحاته. وبسرعة مدهشة وجد ما كان يبحث عنه ووضع إصبعه على مكان في صفحة مفتوحة من الكتاب. كان الكتاب دليلاً، وحيث استقرت إصبعه كان هناك اسم ليون. ب.

ضحك: «انظر. لدينا ليون هنا. أندرياس ليون – 69- أ- سيلير غرابين. اسم غير عادي، ربما كان هذا الرجل يعرف شيئاً ما عن رجلك ليون. اذهب لرؤيته. ربما استطاع أن يخبرك بما تريد أن تعرف. أنا لا أعرف. اعذرني. وقتي محدود. لقد سرتني رؤيتك».

كنت مصاباً بالذهول والإثارة وأنا أغلق الباب ورائي. لقد كان مصيباً. لم أعد أستطيع الحصول على المزيد منه.

في اليوم ذاته ذهبي إلى سيلير غرابين وبحثت عن البيت وطلبت السيد أندرياس ليون. كان يعيش في غرفة الطابق الثالث. أحياناً كان يعود إلى البيت أيام الآحاد وفي الأمسيات. وخلال النهار كان يذهب إلى عمله. سألت عن مهنته فقالوا إنه يفعل أشياء متنوعة، كان يستطيع تقديم النذور، وبالعناية بالأقدام، وبالتدليك (المساج)، كما كان يصنع زيتوناً وأدوية من الأعشاب. وفي الأحوال السيئة، حين لا يكون هناك الكثير مما يفعله، كان أحياناً يشغل نفسه بتدريب الكلاب وتزيينها أيضاً. ذهبت وقررت أنه من الأفضل ألا أزور هذا الرجل أو، على الأقل، ألا أخبره بمقصدي. إلا أنني مع ذلك كنت متلهفاً لرؤيته. ولذلك راقبت المنزل في الأيام القليلة التالية خلال نزهاتي المختلفة، وسأذهب اليوم إلى هناك أيضاً

لأنني حتى الآن لم أوفق في مقابلة أندرياس ليون وجهاً لوجه.

المسألة كلها تقودني إلى اليأس، إلا أنها تجعلني سعيداً أو على الأقل مستثاراً ومتلهفاً. إنها تعيد الأهمية لي ولحياتي. وكان هذا نقصاً كبيراً.

من الممكن أن يكون أصحاب المهن الحرة وعلماء النفس، الذين يعزون الأفعال الإنسانية كلها إلى الرغبات الذاتية، محقين. فأنا لا أستطيع أن أرى أن الإنسان الذي يخدم قضية ما طوال حياته، والذي يهمل متعه وسعادته، ويضحي بنفسه من أجل شيء محدد، إنما يقوم بذلك بالطريقة ذاتها التي يتصرف بها الرجل الذي يتاجر بالعبيد أو يتاجر بالسلاح ثم يبدد أرباحه في حياة من المتعة. لكن لا شك أنني سأهزم فوراً وأندحر في جدال مع عالم نفسي كهذا لأن علماء النفس، طبعاً، هم الذين ينتصرون دائماً. وبمقدار ما يخصني الأمر فإنهم على حق. وبعد ذلك فكل ما كنت أعتبره خيّراً وجميلاً، وكل ما ضحيت من أجله لم يكن إلا رغبات ذاتية. والحقيقة إنني في كل يوم، أرى الأنانية أكثر وضوحاً في مخططي لكتابة نوع من التاريخ للرحلة إلى الشرق.

في البدء بدا لي أنني ألتزم مهمةً عسيرة باسم قضية نبيلة، لكنني أرى بالتدريج أنني من خلال وصفي لرحلتي لم أكن أهدف إلا إلى الشيء ذاته الذي كان السيد لوكاس يهدف إليه من خلال كتابه عن الحرب، وهو، تحديداً، إنقاذ حياتي بإعطائها معنى جديداً.

آه لو أنني، فقط، أستطيع أن أرى الطريق! لو أنني أستطيع أن أخطو خطوة واحدة إلى الأمام فقط.

«ألقِ ليون على الرف، حرر نفسك من ليون» هذا ما قاله لي لوكاس. إنني أستطيع أن ألقي برأسي أو بأحشائي على الرف للتخلص منها ولا أستطيع إلقاء ليون.

يا إلهي العزيز، ساعدني قليلاً!

مرة أخرى يبدو كل شيء مختلفاً الان، وأنا لا أعرف إن كان الأمر قد ساعدني في مشكلتي أم لا. ولكنني مررت بتجربة. حدث لي شيء لم أكن أتوقعه إطلاقاً – أو لا. هل حقيقة أنني لم أكن أتوقعه ولم أعجل بوقوعه ولم أكن امل به أو أخشاه؟ نعم. كنت كذلك. ولكنه يظل غريباً وغير محتمل بما فيه الكفاية.

ترددت على سيلير غرابين، عشرين مرة أو أكثر، أو ما ظننت أنه مرات كثيرة. وكثيراً ما كنت أتجول في (69-أ) وأنا أحمل دائماً فكرة «سأحاول مرة أخرى وإن لم يؤدّ الأمر إلى شيء فلن أعود ثانية». إلا أنني كنت أعود مرة بعد أخرى. وفي يومِ أمس الأول تحققت رغبتي. وأي تحقق كان.

بينما كنت أقترب من البيت الذي صرت أعرف كل فرجة وكل صدع في جصه، سمعت صفرة لحن لأغنية أو رقصة، لحن شعبي يأتي من النافذة العليا. لم أكن أعرف شيئاً حتى الآن لكنني رحت أستمع. وأثار النغم ذاكرتي، فاندفعت بعض الذكريات الحالمة إلى المقدمة. كانت الموسيقى عادية ولكن الصفير كان حلواً بشكل مدهش بنغمة ناعمة ومريحة، وصافية بشكل غير عادي، وفيها من السعادة والعفوية ما في زقزقة العصافير، وقفت أستمع مذهولاً ومتأثراً في الوقت نفسه إلى حد غريب ومن دون أن تأتيني أية أفكار مواكبة، أو أنني إذا كنت قد فكرت في أنه لا بد أن يكون رجلاً سعيداً أو قريباً إلى القلب من يستطيع أن يصفر هكذا. وقفت هناك عدة دقائق مسمراً في مكاني وأنا أستمع. مر بي عجوز ذو وجه مريض غائر. رآني واقفاً فأخذ يستمع هو الآخر للحظة فقط، ثم ابتسم لي متفهماً وهو يمضي. كانت نظرته العجوز الجميلة المتفهمة تبدو وكأنها تقول لي: «ابقَ حيث أنت. فالمرء لا يسمع صفيراً كهذا كل يوم». شجعتني نظرة العجوز، وقد أسفت لذهابه. وفي اللحظة ذاتها أدركت للتو أن في هذا الصفير تحقيقاً لرغباتي كلها، وأن الذي يصفر لا بد أنه ليون.

كانت قد بدأت تظلم ولكن النوافذ كانت خالية من أي ضوء. وانتهى اللحن بتنويعاته ثم ساد الصمت. وقلت لنفسي: «سيشعل الضوء الآن»، ولكن ظل كل شيء غارقاً في الظلام. ثم سمعت باباً يفتح في الطابق العلوي، وبعد ذلك فوراً سمعت وقع خطوات على الدرج. لقد فتح باب البيت وخرج شخص ما. كانت مشيته، مثل صفرته، خفيفة ومرحة ولكن ثابتة ومعافاة وفتية. كان رجلاً نحيلاً جداً حاسر الرأس ولم يكن طويلاً

جداً ذلك الذي كان يمشي هناك. وتحول إحساسي الآن إلى يقين. لقد كان ليون الذي في الدليل، بل ليون ذاته، رفيق سفرنا العزيز وخادمنا ليون الذي أنزل بنا اختفاؤه قبل عشر سنوات أو أكثر حزناً وارتباكاً شديدين. كدت أكلمه في لحظة غبطتي الداخلية ودهشتي. ثم تذكرت أنني كثيراً ما كنت أسمعه يصفر خلال الرحلة إلى الشرق.

كانت الانفعالات ذاتها في الأيام السالفة ولكن كم بدت لي مختلفة بشكل غريب! هيمن عليّ شعور بالحزن مثل طعنة في القلب. آه! كم صار كل شيء مختلفاً منذ ذلك الحين! السماء والهواء والفصول والأحلام والنوم والنهار والليل. بكم من الضخامة والرهبة تغير بالنسبة إليّ كل شيء بحيث أنه، من خلال ذكرى الماضي وحدها، تؤثر فيّ صفرة وإيقاع مشية أليفة بهذا العمق وتمنحني هذا القدر من الغبطة والألم.

مر الرجل بقربي وظهر رأسه الحاسر، طرياً وهادئاً فوق رقبته العالية البارزة من قميصه المفتوح. ومر الشخص بيسر ومرح في الزقاق المعتم وخطاه لا تكاد تسمع بصندله الرقيق أو حذائه الرياضي. تبعته دون قصد محدد. كيف يمكن أن أمنع نفسي من اللحاق به، نزل الزقاق، وعلى الرغم من أن خطواته كانت خفيفة ورشيقة وفتية فقد كانت منسجمة مع المساء. كانت من مادة الغسق ذاتها. كانت ودودة ومنسجمة مع الساعة ومع الأصوات المخنوقة الصادرة عن وسط المدينة، ومع نصف الضوء المنبثق من المصابيح الأولى التي كانت قد بدأت تظهر لتوها.

دخل إلى حديقة صغيرة في «بوابة سانت بول « واختفى الشجيرات الطويلة المدورة وأسرعت لئلا أضيعه. ورأيته من جديد، كان يتمشى بهدوء بين شجيرات الليل والأكاسيا. كان الطريق يتشعب إلى فرعين في الغابة الصغيرة. وكان هناك مقعدان على طرف العشب. هنا تحت الأشجار كان الظلام تاماً. عبر ليون المقعد الأول الذي كان يجلس عليه عاشقان، وكان المقعد الثاني خالياً. جلس واستند على المقعد ورد رأسه إلى الوراء قليلاً وهو يتطلع إلى أوراق الشجر والغيوم. ثم أخرج علبة معدنية بيضاء مدورة صغيرة من جيب سترته ووضعها إلى جانبه على المقعد وفتح الغطاء ثم بدأ، ببطء، يخرج شيئاً ما من العلبة ويضعه في فمه فيأكله مستمتعاً. في ذلك الحين كنت أمشي جيئة وذهاباً من المدخل إلى الغابة، ثم اتجهت إلى مقعده وجلست على الطرف الآخر منه. رفع نظره وتطلع إليه بعينين رماديتين صافيتين وتابع الأكل. كان يأكل فاكهة مجففة: قليلاً من الخوخ وبعض المشمش. كان يتناولها واحدة واحدة بين إصبعيه، يتحسس بإصبعيه كل واحدة قليلاً ثم يضعها في فمه ويمضغها طويلاً

باستمتاع. لقد استغرق وقتاً طويلاً حتى وصل إلى الأخيرة وأكلها. وبعد ذلك أغلق العلبة من جديد وأبعدها عنه، ثم انحنى إلى الوراء ومد ساقيه فرأيت عندها أن لحذائه القماشي نعلين من الحبال المضفورة.

قال بغتة: «ستمطر الليلة» ولم أعرف ما إذا كان يحدثني أن يحدث نفسه.

قلت: «نعم، يبدو ذلك». قلتها وأنا مرتبك قليلاً، فطالما أنه لم يتعرف بعد عليّ من هيئتي ومشيتي فلربما، ولعلّي، كنت شبه متأكد، أنه سيعرفني الآن من صوتي.

ولكن لا. لم يعرفني أبداً حتى من صوتي. وعلى الرغم من أن هذه كانت رغبتي الأولى، إلا أن هذا أدى إلى شعوري بالانزعاج الشديد. لم يتعرف عليّ. وفيما ظل هو كما كان قبل عشر سنين ومن الواضح أنه لم يشخ أبداً، فقد كان الأمر بالنسبة إليّ مختلفاً بشكل محزن.

قلت: إنك تصفر بشكل ممتاز. سمعتك من قبل في سيلير غرابين. وقد أمتعني ذلك كثيراً. لقد كنت موسيقياً.

- هل كنت؟ - قال ذلك بلهجة ودودة – إنها مهنة عظيمة. هل تخليت عنها إذاً؟

- نعم، في الوقت الحالي. حتى إنني بعت كماني.

- بعته؟ يا للأسف! هل أنت في مأزق؟ أعني، هل أنت جائع؟ ما يزال لدي بعض الطعام في بيتي، كما أن لدي بعض المال في محفظتي.

- لا. لا. لم أكن أعني ذلك، إنني أعيش ظروفاً حسنة ولدي أكثر مما احتاج إليه. ولكن شكراً جزيلاً لك. لقد كان لطفاً بالغاً منك أن تعرض ذلك. لم يعد المرء يقابل هذا النوع من الناس كثيراً.

- ألا تظن ذلك؟ حسن. ربما. الناس، غالباً، غريبون جداً. أنت شخص غريب أيضاً.

- هل أنا كذلك؟ لماذا؟

- لأن لديك ما يكفيك من المال ومع ذلك تبيع كمانك. ألم تعد تحب الموسيقى إذاً؟

- طبعاً. ولكن يحدث أحياناً أن امرءاً لا يعود يجد المتعة في شيء ما كان فيما مضى يحبه. ويحدث أحياناً أن يبيع امرؤ كمانه أو يضربه بالجدار، أو أن يقوم رسام ذات يوم بإحراق صوره كلها. ألم يسبق لك أن سمعت بشيء من هذا القبيل؟

- سمعت. هذا ناجم عن اليأس. إنه يحدث. بل إنني أعرف شخصين انتحرا. أناس كهؤلاء أغبياء ويمكن ان يكونوا خطرين. لا يستطيع المرء أن يساعد بعض الناس. ولكن ما الذي تقوم به الآن طالما أنك لم تعد تمتلك كماناً؟

- هذا الشيء أو ذاك. في الحقيقة لا أقوم بالكثير. لم أعد شاباً وأصبحت أمرض كثيراً أيضاً. ولكن لمَ تظل تتحدث عن هذا الكمان؟ الحقيقة إنه ليس بهذه الأهمية.

– الكمان؟ إنه يجعلني أفكر في الملك داوود.

- الملك داوود؟ ما علاقته به؟

- كان موسيقياً أيضاً. حين كان شاباً كان من عادته أن يعزف للملك شاؤول، وأحياناً كان ينفس عن مزاجه السيئ بالموسيقى. فيما بعد صار هو نفسه ملكاً، ملكاً عظيماً مليئاً بالهموم ولديه كل أنواع الأمزجة والمزعجات. لبس التاج وشن حروباً وكل هذا النوع من الأشياء، وقام أيضاً بالكثير من الأفعال الشريرة وصار مشهوراً جداً، ولكنني حين أفكر في حياته فإن أجمل ما فيها هو داوود الشاب الذي يحمل قيثارته ويعزف الموسيقى لشاؤول المسكين. ويبدو لي من المؤسف أنه صار ملكاً فيما بعد. لقد كان إنساناً أفضل وأكثر سعادة حين كان موسيقياً.

هتفت بحماس وانفعال: بالطبع كان كذلك. بالطبع كان فتى في ذلك الحين وأكثر وسامة وسعادة. لكن الإنسان لا يظل فتياً دائماً، ولا بد لداوودك من أن يكبر مع الزمن ويزداد بشاعة وسيمتلئ بالهموم حتى لو ظل موسيقياً. ولذلك صار داوود العظيم وقام بأعماله كلها ونظم مزاميره. الحياة ليست مجرد لعبة!

عندها قام ليون وانحنى. قال: «إنها تعتم وستمطر بعد قليل. لا أعرف الكثير زيادة عن المآثر التي قام بها داوود ولا ما إذا كانت عظيمة فعلاً. ولكي أكون صريحاً تماماً لا أعرف المزيد أيضاً عن مزاميره، لكنني لا أحب أن أقول شيئاً ضده. غير أنه ما من وصف لداوود يمكن أن يثبت لي أن الحياة ليست مجرد لعبة. هذا بالضبط ما هي عليه الحياة حين تكون جميلة وسعيدة – لعبة! ويستطيع المرء، طبعاً، أن يقوم بأنواع الأشياء كافة منها، بجعلها واجباً أو ساحة معركة أو سجناً، لكن هذا لا يجعلها أجمل أبداً. وداعاً – سرتني رؤيتك!».

وبدا هذا الرجل الغريب الودود يبتعد بمشيته الخفيفة الثابتة المريحة، وكان على وشك أن يختفي حين تهدم ضبطي لنفسي وسيطرتي عليها.

ركضت وراءه ملهوفاً وصرخت متوسلاً: «ليون، ليون، أنت ليون. ألست هو؟ ألم تعد تعرفني؟ كنا أخوين في الرابطة معاً ويجب أن نظل هكذا. كنا معاً في عداد المسافرين في الرحلة إلى الشرق. هل نسيتني حقاً يا ليون؟ أحقاً إنك لم تعد تتذكر (حراس التاج) وكلينغسور وغولدموند والاحتفال في بريمغارتن ومدخل موربيو السفلي؟ أشفق عليَّ يا ليون!».

لم يهرب كما كنت أخشى أن يفعل، إلا أنه لم يلتفت. ظل يمشي بثبات وكأنه لم يسمع شيئاً، إلا أنه منحني فرصة أن ألحق به ولم يبدُ عليه أنه يعترض على رفقتي له.

قال بلطف: «أنت مضطرب ومستعجل جداً. وهذا ليس بالأمر الحسن. إنه يجعل الوجه مكفهراً والشخص مريضاً. سنسير ببطء شديد - هذا يساعد على التهدئة. هذه القطرات القليلة من المطر رائعة. أليس كذلك؟ إنها تأتي من الهواء مثل الكولونيا».

رددت عليه: «ليون! كن رحوماً. حدثني عن شيء واحد فقط؛ هل ما زلت تعرفني؟».

قال بلطف «آه!» ثم تابع حديثه وكأنه يتحدث إلى مريض أو سكران: «سيتحسن أمرك الآن، لم يكن الأمر إلا لحظة استثارة. تسألني إن كنت أعرفك. مَن مِن الناس يعرف حقاً الآخر أو يعرف حتى نفسه؟ أنا لست الشخص الذي يفهم الناس أبداً. فأنا لست مهتماً بهم. إنني أفهم الكلاب الآن فهماً تاماً وكذلك العصافير والهررة - لكنني لا أعرفك فعلاً يا سيدي».

- ولكن ألا تنتمي إلى الرابطة؟ أو لم تأتِ معنا في رحلة؟

- ما أزال في الرحلة يا سيدي، وما أزال أنتمي إلى الرابطة. كثيرون يأتون ويذهبون والمرء يعرف الآخرين ولا يعرفهم. الأمر مع الكلاب أيسر. انتظر. ابقَ هنا قليلاً!

ومد إصبعه محذراً. وقفنا في ممر الحديقة المعتم الذي راح يغرق في ظلمة رقيقة هابطة. ومد ليون شفتيه وأطلق صفرة طويلة مرتعشة ناعمة، ثم انتظر قليلاً وصفر من جديد. تراجعت قليلاً حينما قفز بغتة وبالقرب منا وراءه درابزون التعريشة التي كنا نقف إلى جانبها، كلب ألزاسي خارجاً من بين الشجيرات وهو يهر فرحاً، والتحم بالسياج لكي تربت عليه أصابع ليون من بين القضبان والأسلاك. كانت عينا الكلب القوي تلتمعان مخضرتين، وكلما وقعت نظرته علي كان يهدر من أعماق حلقه. وكانت دمدمته مثل رعد بعيد لا يكاد يسمع.

قال ليون يقدمه لي: «هذا هو الكلب الألزاسي نيكر. نحن صديقان

حميمان. نيكر! هذا عازف كمان سابق. يجب ألا تفعل شيئاً ولا حتى أن تنبح عليه».

كنا نقف مكاننا، ليون يحك فروة الكلب الرطبة عبر الدربزون. كان المشهد جميلاً فعلاً. فقد سرني كثيراً أن أرى كم كان ودوداً مع الكلب، وأن أرى الغبطة التي منحته إياها تحية المساء هذه. وفي الوقت ذاته كان ما يؤلمني وما يبدو لي لا يحتمل أن يكون ليون بهذا الوداد مع الكلب الألزاسي وربما مع كلاب كثيرة، بل ربما مع الكلاب في المنطقة كلها بينما كان يفصلني عنه عالم من العزلة. ولم يبدُ فقط أن الصداقة والألفة اللتين كنت أطلبهما بتوسل وتذلل كانتا من نصيب هذا الكلب نيكر بل هما لكل حيوان ولكل قطرة مطر ولكل بقعة من الأرض مشى عليها ليون. كان يبدو أنه قد كرس نفسه بثبات وارتاح تماماً في علاقة سهلة متوازنة مع ما يحيط به، إذ أنه الذي أحببته واحتجت إليه كثيراً، لم تكن هناك صلة، وعني فقط عزل نفسه. كان يتطلع إليّ ببرود وكان بعيداً عني وقد ألغاني من ذاكرته.

مشى مبطئاً. وكان الكلب الألزاسي يرافقه من الجانب الآخر من الدرابزون وهو يطلق أصواتاً ناعمة راضية تدل على التأثر والغبطة، ولكن دون أن ينسى وجودي، فقد كبح صوته المدمدم النابع من العداء والدفاع من أجل خاطر ليون.

قلت من جديد: «اعذرني. إنني أتعلق بك وأضيع وقتك. لا شك في أنك ستذهب إلى البيت وتنام».

قال مبتسماً: «أبداً. إنني لا أمانع من التمشي هكذا في الليل. لا ينقصني الوقت أو الرغبة إن لم يكن هذا مزعجاً لك».

قال ذلك بلهجة ودودة جداً ودون تحفظ طبعاً. ولكنه ما كاد يلفظ الكلمات حتى شعرت في رأسي وفي كل عضلة من جسمي كم كنت متعباً وكم أن كل خطوة في هذا التطواف الليلي المرهق كانت مضنية بالنسبة إليّ.

قلت مكتئباً: «إنني متعب فعلاً، لقد أدركت هذا الآن، كما أنه لا معنى من التطواف طوال الليل في المطر ومن التسبب في إزعاج الآخرين».

قال بأدب كما تحب.

- صحيح يا سيد ليون. لم تكن تتحدث إليّ هكذا خلال الرحلة إلى الشرق. أحقاً إنك نسيت الأمر كله؟ ولكن. حسن. لا فائدة. لا تسمح بتأخيرك أكثر من ذلك. عم مساء!

واختفى بسرعة في الليل الحالم. وظللت وحيداً أحمق، ورأسي محني. لقد خسرت اللعبة. لم يعرفني ولم يكن يريد أن يعرفني، بل سخر مني.

عدت في الممر ونبح عليَّ الكلب نيكر غاضباً من وراء الدرابزون، كنت أرتجف عياء وحزناً ووحشة في الدفء الرطب لهذا الليل الصيفي.

لقد سبق أن واجهت ساعات كهذه في الماضي. وفي لحظات يأس كهذه كان يبدو لي وكأنني قد وصلت، كحاج تائه، إلى الطرف الأقصى من العالم ولم يعد يتبقى لي شيء أفعله إلا إشباع رغبتي الأخيرة، وهي أن أترك نفسي لأسقط عن حافة العالم في الخواء – في الموت. ومع مرور الزمن عاد إلى هذا اليأس مرات عديدة، ولكن الدافع الانتحاري القسري تحول وتلاشى تقريباً، ولم يعد الموت عدماً أو خواء أو فناء بل صار بالنسبة إليَّ أشياء عديدة. صرت الآن أتقبل ساعات اليأس كما يتقبل المرء الألم الجسدي الحاد. يتحمله المرء وهو يتذمر أو يصبر. يحس المرء به يكبر ويتزايد ويكون هناك أحياناً فضول هائج أو ساخر حول المدى الذي سيصل إليه وإلى أي مدى يمكن أن يزداد الألم.

القرف من حياتي التي تخلصت من أوهامها والتي، منذ عودتي من رحلتي الفاشلة إلى الشرق، كانت تفقد المزيد من قيمتها وروحانيتها، وانعدام الثقة في نفسي وفي قدراتي، والتوق الحاسد والمؤسف للأيام الطيبة والعظيمة التي مررت بها ذات يوم، هذا كله صار ينمو في كالألم ويطول كالشجرة ويعلو كالجبل، بدأ ينبض في، وكان كله متعلقاً بالمهمة السابقة التي كنت قد بدأتها حول وصف الرحلة إلى الشرق والرابطة. ويبدو لي الآن أنه حتى إنجازها لم يعد مرغوباً فيه أو ذا قيمة. ظل هناك أمل وحيد ذو قيمة – أن أطهر نفسي وأعالجها إلى حد ما من خلال عملي، ومن خلال خدمتي لذكرى هذا الزمن العظيم، ومن خلال العودة من جديد إلى الصلة بالرابطة وتجاربها.

حين وصلت إلى البيت أشعلت الضوء وجلست على مقعدي بملابسي المبللة وقبعتي ما تزال على رأسي، ورحت أكتب رسالة. كتبت عشر صفحات واثنتي عشرة صفحة وعشرين صفحة من الشكوى والاستعطاف والندم إلى ليون. وصفت حاجتي إليه واستحضرت صوراً من تجاربنا المشتركة وعن أصدقائنا المشتركين القدامى. وتفجعت للمصاعب الكبرى التي لا نهاية لها والتي بددت مشروعي النبيل. تلاشى تعب اللحظة فجلست مستثاراً ورحت أكتب. كتبت أنه على الرغم من الصعوبات كلها

فإنني سأتحمل أسوأ الأمور على أن أفشي سراً واحداً من أسرار الرابطة. وعلى الرغم من كل شيء فلن أفشل في إكمال كتابي في ذكرى الرحلة إلى الشرق وفي تمجيد الرابطة. ورحت وكأنني محموم أملأ صفحة بعد أخرى بكلمات عاجلة. وكانت الهموم والتهم والاتهامات للنفس تتدفق مني كما يتدفق الماء من جرة مكسورة، دون تفكير، دون إيمان، دون أمل في الحصول على جواب، هناك، فقط، رغبة في التخفيف عن نفسي. وفي أثناء الليل أخذت الرسالة المشوشة السميكة إلى أقرب صندوق بريد. أخيراً في ذلك الحين كان الصبح قد أقبل تقريباً فأطفأت الضوء واتجهت إلى غرفة النوم الصغيرة في العلية المجاورة لغرفة معيشتي واستلقيت في السرير. فنمت فوراً. نمت نوماً عميقاً ولوقت طويل جداً.

بعد أن استيقظت وغفوت مرات عديدة، أفقت في اليوم التالي ورأسي يؤلمني ولكنني كنت مرتاحاً، ولدهشتي الشديدة وغبطتي وارتباكي أيضاً وجدت ليون في غرفة المعيشة. كان يجلس على طرف كرسي. وكان يبدو عليه وكأنه كان ينتظر هناك منذ وقت طويل.

هتفت: «ليون لقد أتيت إذاً».

فقال: «أرسلوني إليك من الرابطة. لقد كتبت لي رسالة حولها فأعطيتها للمسؤولين. عليك أن تمثل أمام «العرش السامي». هل نستطيع أن نمضي؟».

أسرعت، مرتبكاً، لانتعال حذائي. وكان المكتب، ما يزال في فوضاه من الليلة الفائتة. في ذلك الحين لم أكن أتذكر أي شيء مما كتبته بتلك القوة وبذلك القلق منذ ساعات قليلة. ولكن يبدو أنها لم تكن عبثاً. لقد حدث شيء ما. لقد جاء ليون.

وأدركت بغتة، ولأول مرة، أهمية كلماته، إذاً ماتزال هناك «رابطة» لم أكن أعرف عنها شيئاً بعد وكانت موجودة من دوني ولم تعد تعتبرني منتمياً إليها. ما تزال هناك (الرابطة) و(العرش السامي)! ما يزال هناك المسؤولون. وقد أرسلوا في طلبي. وكنت غارقاً في مذكراتي عن الرابطة وعن رحلتنا ولم أكن أعرف ما إذا كانت بقية الرابطة ما تزال موجودة ولا أين هي وما إذا كنت، ربما، آخر أعضائها. والحقيقة، ولأعترف بمنتهى الصراحة، إنني في لحظات معينة لم أكن واثقاً مما إذا كانت الرابطة أو عضويتي فيها في أي يوم من الأيام شيئاً حقيقياً.

ولكن ليون يقف الآن هنا وقد أرسلته الرابطة ليبحث عني. لقد تذكروني وأنا مستدعى، إنهم يريدون أن يستمعوا إليّ وربما أن يطلقوا عليّ حكماً. حسن. أنا مستعد. كنت مستعداً أن أبين أنني لم أخن الرابطة. وكنت مستعداً لأن ألبّي وأطيع. وسيان عاقبني المسؤولون أم عفوا عني فإنني كنت مستعداً سلفاً لقبول كل شيء ولتقبل حكمهم على أي شيء وأن أكون مطيعاً لهم.

ذهبنا. سار ليون في المقدمة، ومرة أخرى كما كنت أفعل منذ سنوات عديدة حين كنت أرقبه وأرقب الطريقة التي يمشي بها، كان لا بد لي من الإعجاب به كخادم طيب ونموذجي. سار في الأزقة أمامي برشاقة وصبر ليدلني على الطريق. كان دليلاً نموذجياً وخادماً نموذجياً في عمله، ورئيساً

نموذجياً. إلا أنه أخضع احتمالي لامتحان ليس بالبسيط، لقد استدعتني الرابطة و(العرش العظيم) ينتظرني وكان كل شيء معذباً بالنسبة إليَّ: حياتي المستقبلية كلها ستتقرر وحياتي الماضية كلها إما أنها سوف تستبقى الآن وإما أنها ستفقد معناها – كنت أرتعش توقعاً وغبطة وقلقاً وخوفاً مكبوتاً. ولهذا فإن الطريق الذي سلكه ليون بدا لي، لنفاد صبري، طويلاً بشكل لا يمكن التسامح معه، إذ كان عليَّ أن أتبع دليلي ما يزيد عن ساعتين خلال أغرب المنعطفات وأكثرها مفاجأة. وتركني ليون أنتظر مرتين أمام كنيسة دخل إليها ليصلي. ولوقت طويل بدا لي أن لا نهاية لهذا الأمر. ظل يتأمل مستغرقاً أمام دار البلدية القديمة وهو يحكي لي عن تأسيسها في القرن الخامس عشر من قبل عضو شهير في الرابطة. وعلى الرغم من أن الطريقة التي اتبعها في سيره كانت تبدو جادة ومتحمسة وذات هدف إلا أنني انزعجت كثيراً من المنعطفات والدورات والالتواءات التي لجأ إليها ليصل إلى هدفه. هذه المشية، التي استغرقت منا الصباح كله، كان من الممكن أن تنتهي بربع ساعة.

وأخيراً قادني إلى زقاق هادئ في الضاحية، ثم إلى داخل مبنى ساكن وكبير جداً. من الخارج كان يبدو مثل مبنى مجلس موسع أو متحف. وفي البدء لم يظهر أي إنسان في أي مكان من المبنى. كانت الممرات والأدراج خاوية تنبعث الأصداء منها لوقع خطواتنا. وبدأ ليون يبحث في الممرات والأدراج والردهات. وذات مرة فتح باباً كبيراً رأينا من خلاله استوديو فنان مزدحماً، وأمام حامل لوحة كان الفنان كلينغسور واقفاً بقميصه ذي الأكمام. آه! منذ كم من السنوات لم أرَ وجهه الحبيب! لكنني لم أجرؤ على تحيته. لم يكن الوقت قد حان لذلك. هناك من ينتظرني. وأنا مستدعى. ولم يهتم بنا كلينغسور كثيراً. هز رأسه لليون، وإما أنه لم يرني أو أنه لم يعرفني، ثم أشار لنا صامتاً وبطريقة ودية، لكنها حاسمة، أن نخرج، إذ أنه لن يسمح بأية مقاطعة له في عمله.

وأخيراً، في أعلى المبنى الهائل وصلنا إلى علية تفوح منها روائح الورق والكرتون، وعلى الجدران كلها ولمئات من الياردات أبواب كرتونية بارزة، وأغلفة كتب ورزم وثائق، أرشيف هائل، أو مكتب محفوظات ضخم. لم يهتم بنا أحد. كان كل من في المكان منكباً على عمله بصمت. وبدا لي أن العالم كله، وحتى السماوات المرصعة بالنجوم، تحكم أو تسجل وتراقب من هنا. وقفنا هناك فترة طويلة ونحن ننتظر. كان كثيرون من مسؤولي الأرشيف أو المكتبة يتسارعون من حولنا بصمت وفي أيديهم مجموعات من الجداول والأرقام. كانت السلالم تنصب وتعتلى، وكانت مصاعد

وعربات صغيرة تحرك بحذر وهدوء. وفي النهاية بدأ ليون يغني. واستمعت إلى النغم متأثراً بعمق، لقد كنت أعرفه جيداً فيما مضى. كانت إحدى أغاني رابطتنا.

عند سماع الأغنية اندفع، بغتة، كل شيء يتحرك. تراجع المسؤولون وتوسعت القاعة اتساعاً معتماً. وكان الناس المجدون، الصغار وغير الحقيقيين، يعملون في منطقة الأرشيف الهائلة في الخلف. ولكن ظلت المقدمة واسعة وخالية. اتسعت القاعة بطول مخيف. وكان في الوسط مقاعد كثيرة مرتبة بشكل منظم، ثم دخل كثير من المسؤولين، بعضهم من المؤخرة وبعضهم من الأبواب العديدة. اقتربوا من المقاعد ثم جلسوا عليها واحداً بعد الآخر. وبدأ صف من المقاعد بعد الآخر يمتلئ ببطء. وظهر شكل المقاعد تدريجياً وانتهى إلى عرش عظيم لم يجلس عليه أحد بعد. وامتلأ السندريون حتى وصل إلى العرش. تطلع ليون إليّ بنظرة محذرة طالباً مني أن أكون صبوراً وصامتاً ومحترماً ثم اختفى في الزحام. بغتة ذهب ولم أعد أستطيع رؤيته. ولكنني تعرفت على وجوه أليفة، هنا وهناك، بين المسؤولين المحتشدين حول العرش السامي، وجوه مقطبة أو باسمة. رأيت البرتوس ماغنوس والقبطان فازوديفا والفنان كلينغسور وآخرين.

وأخيراً ساد الهدوء وتقدم الناطق إلى الأمام. وحيداً وصغيراً وقفت أمام العرش السامي مستعداً لكل شيء وفي حالة من القلق الشديد ولكن، أيضاً، بانسجام تام مع ما سيحدث وما سيقرر.

وبوضوح وهدوء راح صوت الناطق يرن في القاعة. وسمعته يعلن: «اتهام ذاتي لأخ هارب من الرابطة». ارتجفت ركبتاي. لقد كان الأمر متعلقاً بحياتي. ولكن الصحيح أن يكون الأمر هكذا إذ يجب أن ينظم كل شيء. وتابع الناطق:

«هل اسمك هـ. هـ؟ هل شاركت في المسير عبر سوابيا العليا وفي الاحتفال في بريمغارين؟ وهل تخليت عن ألوانك بعد مدخل موربيو بقليل؟ هل اعترفت بأنك كنت تريد أن تكتب قصة عن الرحلة إلى الشرق؟ وهل اعتبرت نفسك مقيداً بتعهدك بالتزام الصمت حيال أسرار الرابطة؟».

كنت أجيب على الأسئلة واحداً بعد الآخر بـ«نعم»، حتى تلك الأسئلة التي كانت بالنسبة إليّ غير مفهومة أو مرعبة.

واجتمع المسؤولون يتناقشون بالهمسات والإشارات لفترة قصيرة، ثم تقدم الناطق مرة ثانية وأعلن:

«إن مُتهم ذاته مخول في أن يكشف عن كل قانون وكل سر للرابطة

مما كان يعرفه. والاكثر من ذلك إن محفوظات الرابطة كلها تحت تصرفه من أجل عمله».

انسحب الناطق. وتفرق شمل المسؤولين واختفوا من جديد بعضهم من خلفية القاعة، وبعضهم عبر المخارج، وساد صمت مطبق في القاعة الكبيرة. كنت أتطلع حولي قلقاً حين رأيت شيئاً ما ملقى فوق وثائق الأرشيف والذي بدا لي مألوفاً. حين أمسكت به عرفت فيه كتابي، بدايتي المعقدة، المخطوطة التي بدأت بها. «قصة الرحلة إلى الشرق» بقلم هـ. هـ. كانت مكتوبة على المغلف الأزرق. أمسكت به وقرأت الصفحات الصغيرة المحتشدة المكتوبة باليد والمليئة بالتشطيب والتصحيح. وبسرعة وتوق إلى العمل هيمن عليّ الإحساس بأنني الآن، أخيراً، وبعد موافقة القيادات العليا، بل وإصرارها، سمح لي أن أكمل عملي. وحين أدركت أنه لم يعد يقيد عملي أي قسم، وإنني مخول بالدخول إلى الأرشيف، إلى غرفة الكنوز الهائلة هذه، بدت لي مهمتي أعظم وأكبر قيمة مما سبق.

ولكن كلما زادت الصفحات التي أقرأها من كتابتي قل إعجابي بالمخطوطة، وحتى في أكثر ساعاتي السابقة جزءاً لم تكن تبدو لي تافهة وسخيفة كما هي الآن. بدا لي أن كل شيء مشوش وسخيف، وأن أوضح العلاقات قد تشوهت، والاكثر أهمية ووضوحاً قد نسي. وتقدم إلى المقدمة كل ما هو ضحل وغير مهم. لا بد من إعادة كتابتها من جديد، ومن البداية تماماً. وحين تابعت قراءة المخطوطة كان عليّ أن أشطب جملة بعد أخرى، وفيما كنت أشطبها كانت تتفتت على الورقة، وكانت الأحرف البارزة والمائلة تتبعثر إلى نتف مشتتة، إلى جرات قلم ونقاط ودوائر وأزهار صغيرة ونجوم. وامتلأت الصفحات مثل السجادات بتصاميم تزيينية جميلة لا معنى لها. وسرعان ما لم يتبق شيء من النص. استجمعت نفسي، وحاولت أن أرى الأمور بوضوح. من الطبيعي أنني كنت عاجزاً عن تقديم وصف واضح ونزيه من قبل، وذلك لأن كل شيء في الحقيقة كان متعلقاً بالأسرار التي كان يُمنع عليّ إفشاؤها بسبب قسمي للرابطة. حاولت ان أتجنب الطرح الموضوعي للقصة. ودون اعتبار للعلاقات ذات الأهمية وللأهداف والأغراض ألزمت نفسي بتجاربي الشخصية. ولكن يستطيع المرء أن يرى إلى أين أدى بي ذلك. من جهة أخرى لم تعد هناك قيود أو التزامات بالصمت. لقد مُنحت إذناً رسمياً كاملاً وأكثر من ذلك إن المحفوظات التي لا تنضب كانت كلها مفتوحة أمامي.

لقد كان الواضح بالنسبة إليّ أنه حتى لو أن عملي السابق يسقط في التزيين فإن عليّ أن أبدأه من جديد، وعلى أساس جديد، وأن أكمله مرة

أخرى. قررت أن أبدأ بوصف قصير للرابطة، أساسها ودستورها.

لا بد من أن المصنفات الضخمة اللامتناهية الشاملة المرتبة ستقدم الإجابة عن تساؤلاتي.

قررت قبل كل شيء أن أتفحص المحفوظات دون تحديد. كان عليَّ أن أتعلم كيف أستخدم هذه القوة. ولا شك في أنني بحثت عن وثيقة الرابطة قبل أي شيء آخر.

كان المكتوب في المجموعة: «وثيقة الرابطة، انظر فصل كريستو ستوموس، المجموعة في – القصيدة 39-8» جميل.

وجدت الفصل والمجموعة والقصيدة بسهولة. كانت المحفوظات مرتبة بشكل مدهش. وها أنا الآن أمسك بوثيقة الرابطة في يدي.

وقد كان عليَّ أن أكون مستعداً لمواجهة احتمال أنني قد لا أستطيع قراءتها. والحقيقة فعلاً لم أستطع قراءتها.

كانت مكتوبة بأحرف يونانية، كما بدا لي، وقد كنت أفهم قدراً لا بأس به من اليونانية، ولكن هناك أمراً واحداً هو أنها كانت مكتوبة كتابة غريبة مغرقة في القدم. حروفها، على الرغم من وضوحها الظاهري، كانت مستغلقة في معظمها بالنسبة إليَّ. والأمر الآخر أن النص كان إما انه مكتوب بلهجة محلية أو بلغة رمزية سرية. لم أكن أفهم منها إلا كلمة بالمصادفة وكأنني أقرأها عن بعد بالصوت وبالتشبيه. إلا أن همتي لم تثبط. فحتى لو ظلت الوثيقة غير مقروءة إلا أن حروفها قد أعادت إليَّ ذكريات حية من الماضي. بشكل خاص رأيت صديقي لونغوس وهو يكتب الحروف اليونانية والعبرية في الحديقة مساءً، والحروف تتحول إلى عصافير وغيلان وثعابين في الليل.

تطلعت في المصنف فارتعدت لضخامة المادة التي تنتظرني فيه. مررت على الكثير من الكلمات الأليفة والكثير من الأسماء المعروفة. وبرعشة مررت على اسمي، لكنني لم أجرؤ على سبر الأرشيف عنه. من يستطع تحمل سماع حكم محكمة شمولية المعرفة عليه؟

ومن جهة أخرى وجدت، مثلاً، اسم الفنان بول كليه الذي تعرفت عليه في الرحلة والذي كان صديقاً لكلينغسور. بحثت عن رقمه في الأرشيف، ووجدت صحناً صغيراً مطلياً بالذهب وعليه نخلة إما مرسومة أو محفورة. كانت أوراقها الثلاثة الأولى تمثل قارباً أزرقَ صغيراً، وسمكة بحراشف ذهبية وكتاباً يشبه البرقية كتب عليه:

أزرق كالثلج

هو بول مثلي كلي

منحتني قراءتي عن كلينغسور ولونغوس وماكس وتيلي غبطة مأساوية. كما أنني لم أستطع مقاومة الرغبة في معرفة شيء ما عن ليون. على مصنف ليون كان مكتوباً:

استسلم!

اسقفي. 19. شماس. د. 7

كورنو آمون. 6.

استسلم

أثارني إنذار «استسلم» ولم أستطع استكناه هذا السر. إلا أنني في كل محاولة جديدة بدأت أدرك أكثر فأكثر كم من وفرة لم أحلم بها من المادة والمعرفة والوسائل السحرية يحتوي عليها هذا الأرشيف. كان يبدو لي أنه يحتوي على العالم كله.

وبعد جولات مفرحة أو مذهلة في فروع المعرفة الكثيرة كنت أعود مرات عديدة إلى مصنف «ليون» بفضول متزايد. ثم، بينما كنت أبحث في خزانة مليئة عثرت على كلمة «فاطمة» مع الملاحظة التالية:

أميرة. شرقية 20

ليل. مطحنة. 983

نصيحة – لذيذة - 7

بحثت ووجدت المكان في الأرشيف. كانت هناك علبة صغيرة يمكن فتحها وكان فيها صورة مصغرة لأميرة جميلة فاتنة، ذكرتني فوراً بألف ليلة وليلة كلها وبحكايات شبابي كلها وبأحلام ورغبات الفترة العظيمة حينما، من أجل أن أسافر إلى فاطمة في الشرق، أديت المرحلة الأولى من خدمتي وسجلت نفسي عضواً في الرابطة. كانت العلبة الصغيرة ملفوفة بمنديل حريري بنفسجي زاه جميل التطريز له عبير حلو وقديم جداً وهو حافل بذكريات أميرة الشرق، وفيما كنت أستنشق هذا العبير السحري النادر القديم هيمنت عليَّ بغتة وبشكل قوي ذكرى السحر الحلو الذي شملني عندما بدأت رحلتي إلى الشرق، ثم كيف تبعثرت الرحلة بفعل عوائق خيالية، ومجهولة في حقيقتها، ثم كيف تلاشى السحر تدريجياً، ثم كيف صار الأسى وتبدّد الأوهام واليأس المطبق الذي صار منذ ذلك الحين هواء حياتي وطعامها وشرابها! لم أعد قادراً على رؤية المنديل أو الصورة، كان غشاء الدموع الذي يغطي عيني كثيفاً، وصرت أفكر في أنه الآن لم

تعد صورة الأميرة العربية كافية لأن تكون تعويذة في وجه العالم والجحيم ولأن تحولني إلى فارس وصليبي. إنني في حاجة الآن إلى تعويذات أخرى أقوى. ولكن كان حلواً وبريئاً ومباركاً ذلك الحلم الذي هيمن على شبابي، ذلك الحلم الذي حولني إلى حاكي قصص وإلى موسيقي وإلى مبتدئ رهبنة والذي أودى بي إلى موربيو.

أيقظتني الأصوات من تأملاتي. من الأطراف كافة حولي فاجأني الاتساع اللامتناهي لقاعة الأرشيف بشكل مخيف. وجاءتني فكرة جديدة، أو بالأحرى انبثق فيَّ ألم جديد مثل ومضة البرق. كنت، ببساطتي، أريد أن أكتب قصة الرابطة وأنا لم أستطع حل رموز واحد من الألف من ملايين الوثائق والكتب والصور والمراجع الموجودة في الأرشيف أو فهمها. مخزياً، وأحمق بما لا يمكن التعبير عنه، ومضحكاً وعاجزاً عن فهم نفسي وشاعراً بضآلتي رأيت نفسي واقفاً وسط كل ما سمح لي أن أتسلى به لكي أدرك بدقة ماهي الرابطة وما هو أنا.

دخل المسؤولون من الأبواب المتعددة وبأعداد كبيرة. ما زلت قادراً على تمييز كثيرين منهم من خلال دموعي. ميزت جوب الساحر ولندهورست، الأرشيفي، وموزارت لابساً مثل بابلو، وملأت المجلس العتيد عدة صفوف من المقاعد التي كانت قد أصبحت أعلى وأضيق في المؤخرة، وعلى العرش الذي كان يشكل القمة رأيت قبة ذهبية متلامعة.

وتقدم الناطق إلى الأمام ثم أعلن: «الرابطة مستعدة لإطلاق حكم من خلال مسؤوليها على متهم ذاته هـ. الذي أحس بأنه ملزم بالاحتفاظ بأسرار الرابطة، والذي أدرك الآن كم كان مقصده غريباً وجاحداً حين أراد أن يكتب قصة الرابطة التي لم يعد يؤمن بوجودها، والتي كان خائناً لها».

ثم التفت إليَّ وقال بصوته الجهوري الواضح: «أيها المتهم ذاته هـ. هل توافق على الاعتراف بمحكمة العدل وبالخضوع لحكمها؟».

أجبته «نعم».

فتابع: «أيها المتهم ذاته هـ. هل توافق على أن تطلق محكمة العدل المؤلفة من الرؤساء حكمها عليك دون وجود الرئيس في كرسيه، أم أنك ترغب في أن يطلق الرئيس الحكم عليك؟».

قلت: «أوافق على أن يحكم علي المسؤولون بوجود الرئيس ودون وجوده».

كان الناطق على وشك أن يكمل حين قال صوت ناعم من الطرف الأقصى في القاعة: «الرئيس مستعد لإطلاق الحكم بنفسه».

هزني هذا الصوت الناعم بشكل غريب. ومن أعماق القاعة، ومن آفاق الأرشيف البعيدة جاء رجل كانت مشيته خفيفة وهادئة وقميصه مرصعاً بالذهب. ازداد اقتراباً وسط صمت المجلس فعرفت مشيته وعرفت حركاته، وأخيراً ميزت وجهه. كان هو «ليون». برداء زاه بهيج صعد بين صفوف المسؤولين إلى العرش السامي مثل البابا. وكزهرة عظيمة نادرة حمل بهاء ملابسه صاعداً الدرج. كان كل صف من المسؤولين يقف لتحيته حين يمر به. كان يحمل مركزه المتألق براحة ضمير وبتواضع وبإحساس بالمسؤولية، بالتواضع الذي يحمل فيه الباب الأقدس أو البطريرك شارته.

ذهلت وتأثرت بانتظار الحكم الذي كنت أتهيأ لتلقيه وقبوله بتواضع سيان كان فيه عقوبة أم تمجيد. لم أكن أقل ذهولاً وتأثراً من كون ليون الخادم والحمال السابق، هو الذي يقف الآن على رأس الرابطة كلها وهو على أهبة الاستعداد لإطلاق حكمه عليَّ. لكنني كنت أكثر إثارة ودهشة واضطراباً وسعادة لاكتشافي العظيم هذا اليوم بأن الرابطة مستقرة وقوية تماماً كما كانت دائماً، وأن ليون والرابطة ليسا هما اللذان هجراني وجرداني من أوهامي، بل أنا وحدي الذي كنت ضعيفاً وأحمق بحيث أسيء فهم تجاربي ذاتها وأشك في الرابطة وأعتبر الرحلة إلى الشرق فاشلة، وأعتبر نفسي الناجي والمؤرخ لقصة منتهية ومنسية بينما لم أكن في الحقيقة أكثر من هارب وخائن وفار. إن الدهشة والفرح كامنان في هذا الاكتشاف. كنت أقف صغيراً ووضيعاً عند أسفل العرش السامي الذي قُبلت منه ذات يوم أخاً في الرابطة، والذي أديت من خلاله طقوس ترهبني الأول، وتلقيت خاتم الرابطة ثم أرسلت بعدها فوراً إلى الخادم ليون من أجل الرحلة. ووسط هذه الأمور كلها أدركت خطيئة جديدة وخسارة جديدة لا يمكن شرحها، وعاراً جديداً: لم أعد أحمل خاتم الرابطة. لقد ضيعته. لا أعرف متى ولا أين. لم أفتقده مرة واحدة قبل هذا اليوم.

في هذه الأثناء كان الرئيس، ليون المتلفع بالذهب، قد بدأ يتحدث بصوته اللطيف الجميل، ووصلت كلماته إليَّ لطيفة ومريحة مثل أشعة الشمس.

جاءت الكلمات من العرش السامي: «كانت لدى مُتهمِ ذاته الفرصة لأن يتخلص من بعض أخطائه. هناك الكثير مما يقال ضده، وربما كان ما يمكن تصوره والعفو عنه أنه كان غير مخلص للرابطة، وأنه ألقى باللائمة على الرابطة بسبب فشله وحماقاته، وأنه قد تشكك في استمراريتها، وأنه كان يحمل الطموح الغريب بأن يصبح مؤرخ الرابطة. هذا كله لا يثقل موازينه فقد كانت كلها، إذا سمح لي مُتهمِ ذاته بهذا التعبير، غباوات مبتدئ ويمكن

محوها بابتسامة».

تنفست الصعداء ومرت ابتسامة خفيفة على المجلس العتيد كله، فأن تكون أشد خطيئاتي جدية، وحتى توهمي بأن الرابطة لم تعد موجودة وأنني التلميذ الوحيد المتبقي، من المسائل التي تعتبر لدى الرئيس مجرد «غباوات» ومسائل تافهة، فإن هذا كان متنفساً عظيماً لي، وفي الوقت ذاته فإنه قد أعادني إلى نقطة بدايتي.

«ولكن!» تابع ليون وقد أصبح صوته اللطيف الآن حزيناً وجاداً - «هناك تهم أكثر جدية بكثير ملصقة بالمدعى عليه، وأسوأها أنه لا يقف كفتهم لنفسه بسبب هذه الخطايا بل يبدو عليه أنه ليس على علم بها. وهو لا يستطيع أن يغفر بعمق لأنه لم يستطع أن يتعرف على الرئيس ليون في شخص الخادم ليون وهو على وشك إدراك مدى عدم إخلاصه للرابطة. ولكنه في الوقت الذي يعتبر فيه هذه الأفكار خاطئة والحماقات جدية جداً، ثم يكتفي بأن يعرف بارتياح أنها يمكن أن تمحى بابتسامة، فإنه ينسى بعناد ذنوبه الحقيقية والتي تشكل حشداً كبيراً. لكل منها من الجدية ما يكفي لإيقاع أقسى العقوبات».

خفق قلبي بسرعة. والتفت ليون إليّ: «أيها المدعى عليه هـ. ستتعرف في ما بعد على أخطائك وستتعلم كيف تتجنبها في المستقبل، ولكن فقط من أجل أن أريك كم أنك لا تفهم وضعك فهماً صحيحاً فإنني أسألك: هل تذكر مشيتك عبر المدينة برفقة الخادم ليون الذي كان عليه، كرسول، أن يحضرك أمام العرش السامي؟ نعم. إنك تتذكر. وهل تتذكر كيف مررنا بمجلس البلدية وكنيسة القديس بولس والكاتدرائية، وكيف دخل الخادم ليون إلى الكاتدرائية لكي يركع ويصلي قليلاً، وكيف أنك لم تكتف بالامتناع عن الدخول معي لكي تؤدي واجباتك بما يتفق والبند الرابع من قسمك للرابطة، بل كيف بقيت خارجاً، عديم الصبر وضجراً منتظراً نهاية الطقس السخيف الذي بدا لك غير ضروري أبداً والذي كان بالنسبة إليك ليس أكثر من اختبار غير مقبول لنفاد صبرك الأناني؟ نعم. إنك تتذكر. بسلوكك أمام باب الكاتدرائية وحده تكون قد دست على المتطلبات الأساسية للرابطة وعلى عاداتها. لقد استخففت بالدين. واحتقرت أخاً لك في الرابطة.

ورفضت بنفاد صبر فرصة ودعوة إلى الصلاة والتأمل. إن هذه الخطايا لا يمكن غفرانها ما لم تكن هناك ظروف مخففة خاصة في حالتك».

لقد ضرب الآن ضربته. سيقال الآن كل شيء ولن تكون هناك مسائل

ثانوية بعد، ولا مجرد غباوات. لقد كان أكثر من مصيب ولقد ضربني في الصميم.

«لا نريد أن نحصي أخطاء المدعى عليه كلها». تابع الرئيس، «فهو لن يتعرض للحكم على أساس الرسالة، ونحن نعرف أن الأمر لا يتطلب إلا أن يقوم مذكرنا بإيقاظ ضمير المدعى عليه وتحويله إلى متهم ذاته نادم».

«وبالرغم من ذلك يا متهم ذاته هـ. أنصحك أن تستحضر بعضاً من أعمالك الأخرى قبل حكم ضميرك. أعليَّ أن أذكرك بالأمسية التي زرت فيها الخادم ليون وكنت راغباً في أن يتعرف عليك كأخ في الرابطة على الرغم من أن ذلك كان مستحيلاً لأنك جعلت نفسك غير معروف كأخ في الرابطة؟ أعليَّ أن أذكرك بالأمور التي قلتها بنفسك للخادم ليون؟ عن بيعك كمانك؟ وعن الحياة الانتحارية الضيقة الغبية المخيفة التي عشتها سنوات عديدة؟

«وهناك شيء آخر، يا أخ هـ. يجب ألا أصمت عنه. ربما لم ينصفك الخادم ليون في ذلك المساء. ولنفترض أنه فعل ذلك. ربما كان الخادم ليون صارماً جداً وربما رسمياً جداً وربما أنه لم يظهر القدر الكافي من الصبر والتفهم لك ولظروفك. لكن هناك سلطات أعلى وحكاماً آخرين أكثر عصمة من ليون. ماذا كان حكم الحيوان عليك أيها المدعي عليه؟ هل تتذكر الكلب نيكر؟ هل تذكر رفضه وإدانته لك؟ إنه ما يزال نقياً، وهو لا يحابي وليس أخاً في الرابطة».

توقف. نعم. نيكر الإلزاسي. لقد رفضني وأدانني فعلاً. وافقت. لقد صدر الحكم عليَّ من الإلزاسي، ومن نفسي.

وبدأ ليون ثانية: «يا مُتهم ذاته هـ.» ومن الوميض الذهبي في أرديته ومظلته رن صوته بارداً ومبتهجاً وواضحاً مثل صوت القائد عندما يظهر أمام باب دون جيوفاني في الفصل الأخير. «لقد استمعت إليَّ يا متهم ذاته هـ. ولقد وافقتني. وإنك، كما نفترض، قد حكمت على نفسك. أليس كذلك؟».

«نعم». قلت بصوت خافت «نعم».

- ونفترض أنه حكم سلبي ذلك الذي حكمت علي به على نفسك؟

همست: نعم.

عندها نهض ليون عن العرش ومد ذراعيه بلطف.

- إنني أتوجه إليكم الآن أيها المسؤولون. لقد سمعتم وعرفتم كيف كان الأمر مع أخينا في الرابطة هـ. وهي حالة ليست غريبة عليكم، ولقد كان

على كثيرين منكم أن يجربوها. إن المدعى عليه لم يعرف حتى هذه الساعة، ولم يستطع أن يؤمن، بأن ردته وضلاله كان امتحاناً. لقد مر زمن طويل عليه ولم يستسلم. تحمل الأمر سنوات كثيرة وهو لا يعرف شيئاً عن الرابطة وظل وحيداً وهو يرى كل شيء يؤمن به مدمراً. وأخيراً لم يعد قادراً على الاختباء وضبط النفس. صارت معاناته عظيمة جداً وأنتم تعرفون أنه حين تصبح المعاناة قاسية بالقدر الكافي فإن المرء يتقدم. لقد وصل الأخ هـ. في امتحانه إلى اليأس، واليأس هو نتيجة كل محاولة مخلصة لفهم الإنسانية وتبريرها. اليأس هو نتيجة كل محاولة مخلصة لعبور الحياة مع الفضيلة والعدالة والفهم وتلبية متطلباتها. الأطفال يعيشون على جانب من اليأس ويعيش اليقظون على الجانب الآخر. والمدعى عليه هـ. لم يعد طفلاً كما أنه لم يتيقظ تماماً. إنه ما يزال في غمار اليأس. سوف يتغلب عليه ويصل بذلك إلى مرحلته التدريبية الثانية. إننا نرحب به مجدداً في الرابطة التي لن يطالب بعد الآن بفهم معناها. ونعيد إليه خاتمه المفقود الذي احتفظ له الخادم ليون به».

عندها جلب لي الناطق الخاتم وقبلني على خدي ووضع الخاتم في إصبعي. وما أن تطلعت إليه، ما أن أحسست ببرودته المعدنية على أصابعي، حتى خطرت لي آلاف الأشياء، ألف عمل لا يمكن تصوره من أعمال الإهمال والاستخفاف. قبل كل شيء خطر لي أن للخاتم أربعة أحجار على مسافات متساوية وأن من قواعد الرابطة، وأن جزءاً من القسم، أن أدير الخاتم ببطء حول إصبعي مرة واحدة على الأقل في اليوم. وأن أتذكر مع كل حجر من الأحجار الأربعة واحداً من البنود الأربعة الأساسية للقسم. وأنا لم أكن قد ضيعت الخاتم فقط، ولم أفتقده ولو مرة واحدة، بل إنني طوال هذه السنوات الرهيبة كلها لم أقم بترديد البنود الأربعة الأساسية أو أفكر فيها. وحاولت، فوراً، أن أرددها من جديد ضمنياً. كان في بالي أنها ما تزال في أعماقي، وأنها ملتصقة بي مثل اسم أحاول أن أتذكره في لحظة ما، ولكني في هذه اللحظة بالذات لا أتذكره. لا. ظل صامتاً في أعماقي. ولم أستطع ترديد القواعد. لقد نسيت القواعد. لم أرددها منذ سنوات عديدة. ومنذ سنوات عديدة لم أعتنِ بها ولم أقدسها – ومع ذلك فقد كنت أعتبر نفسي أخاً موثوقاً في الرابطة.

ربت الناطق على ذراعي وهو يلاحظ ارتباكي وخجلي العميق، ثم سمعت الرئيس يتحدث من جديد:

« أيها المدعى عليه ومُتهم نفسه هـ. لقد بُرِّئت. ولكن لا بد لي من أن أخبرك بأن من واجب الأخ الذي يُبرّأ في حالة كهذه أن يدخل صفوف

المسؤولين ويشغل واحداً من مقاعدهم حالما يجتاز اختبار إيمانه وطاعته. إن له الحق في اختيار امتحانه. والآن يا أخ هـ. أجب عن أسئلتي: هل أنت على استعداد لترويض كلب متوحش كامتحان لإيمانك؟».

تراجعت خائفاً. صرخت وأنا أبتعد عنه: «لا. لا أستطيع أن أفعل ذلك!».

- هل أنت مستعد وراغب في حرق محفوظات الرابطة فوراً وبأمر منا، مثلما يحرق ناطقنا قِسماً منها أمام عينيك؟

تقدم الناطق ومد يديه في الخزن المليئة المرتبة وسحبهما مليئتين بالأوراق، مئات الأوراق، وأرعبني بأن أحرقها فوق وعاء الفحم.

«لا» قلت وأنا أتراجع «وهذا أيضاً لا أستطيع القيام به».

«استسلم يا أخ» صرخ الرئيس. «هيا أيها الأخ الطائش. لقد بدأت بأبسط المهام التي تتطلب الحد الأدنى من الإيمان. كل مهمة تالية ستزداد صعوبتها. أجبني: هل أنت مستعد وراغب في مراجعة أرشيفنا لمعرفة نفسك؟».

أحسست بالبرودة وتوقف نفسي. لكنني فهمت. كل سؤال سيصبح أكثر صعوبة: لا مفر إلا إلى ما هو أسوأ. تنفست بعمق ونهضت وقلت: نعم.

قادني الناطق إلى المنصات التي تقف عليها مئات الخزن المليئة. تطلعت ووجدت حرف هـ. وجدت اسمي ووجدت أيضاً اسم سلفي أيوبان الذي كان منذ أربعمئة سنة، عضواً في الرابطة. وبعده اسمي وعليه هذا التعليق.

مهذار – ر- زائر – cx

مدني – كالفني – مرتد -49

ارتعشت الورقة في يدي. وفي ذلك الحين كان المسؤولون قد نهضوا من مقاعدهم واحداً بعد الآخر ومدوا أيديهم إليّ وهم يحدقون في وجهي مباشرة، ثم غادروا القاعة. صار العرش السامي خالياً، وفي الختام نزل الرئيس عن العرش ومد يده إلي وتطلع إلى وجهي، ثم ابتسم ابتسامته الورعة اللطيفة كابتسامة الأسقف وغادر القاعة في أثرهم. بقيت هناك وحيداً والمذكرة في يدي للعودة إلى الأرشيف بحثاً عن المعلومات.

لم أستطع أن أدفع نفسي فوراً نحو استشارة الأرشيف حول نفسي. وقفت متردداً في القاعة الخاوية. ورأيت العلب والخزن والصناديق

والأرفف وركام المعلومات المهمة التي أستطيع الاقتراب منها، ممددة في خط طويل. ولكنني لخوفي من رؤية ورقة سجلي ولرغبتي الملحة في المعرفة سمحت بتأجيل شؤوني قليلاً بغية التعرف أولاً على بعض الأشياء التي كانت مهمة بالنسبة إليّ ولقصتي عن الرحلة إلى الشرق، لا شك أنني كنت قد عرفت مسبقاً أن قصتي قد حكم عليها وحسم أمرها وأنني لن أنهي كتابتها أبداً. ولكن فضولي ظل كما هو.

رأيت مذكرة سيئة التغليف ظاهرة بين المذكرات الأخرى في إحدى خزن الدوسيهات فاتجهت إليها وسحبت المذكرة التي كان مكتوباً عليها: وادي موريبو.

ليست هناك أي كلمة مساعدة أخرى يمكن أن تعبر عن مضمون فضولي باختصار ودقة أكثر من ذلك. وفيما كان قلبي يخفق رحت أتصفح المكان في الأرشيف. كان قسماً من الأرشيف يحتوي على كمية كبيرة من الأوراق، وعلى رأسها نسخة في وصف مدخل موريبو مأخوذة من كتاب إيطالي قديم، ثم قطعة مربعة وعليها ملاحظات قصيرة حول الدور الذي لعبه موربيو في تاريخ الرابطة. كانت الملاحظات كلها تشير إلى الرحلة إلى الشرق وإلى القاعدة والمجموعة اللتين كنت فيهما. كان مكتوباً فيها أن مجموعتنا قد وصلت إلى موربيو في رحلتها. وهناك خضعت لامتحان لم تجتزه بنجاح وهو اختفاء ليون. وعلى الرغم من أن قوانين الرابطة كان يجب أن ترشدنا، وحتى على الرغم من حادث بقاء المجموعة دون قائد، فإن البنود مفيدة ولكننا لم نحسبها في بداية الرحلة. إلا منذ اللحظة التي اكتشفت فيها مجموعتنا اختفاء ليون فإنها أضاعت صوابها وإيمانها وتولدت لديها شكوك ودخلت في مناقشات لا جدوى منها. وفي النهاية، وخلافاً لروح الرابطة، تمزقت المجموعة كلها إلى شراذم وتفككت. لم يعد هذا الوصف لمصيبتنا في موريبو يستطيع أن يدهشني، ومن جهة أخرى دهشت دهشة شديدة حين قرأت في ما بعد عن تفكك مجموعتنا وضياعها، وتحديداً أن ما لا يقل عن ثلاثة من الأخوة في الرابطة قد حاولوا أن يكتبوا وصفاً للرحلة وعرضاً لما حدث في موريبو. كنت واحداً من هؤلاء الثلاثة، وكانت نسخة واضحة من مخطوطتي موجودة في القسم. قرأت المخطوطتين الأخريين بشعور غريب. كان الكاتبان قد وصفا، أساساً، أحداث ذلك اليوم بشكل لا يختلف كثيراً عن الطريقة التي وصفتها بها. ولكن كم بدتا لي مختلفتين. قرأت في إحداهما:

«كان غياب الخادم ليون هو ما كشف لنا، بغتة وبشكل رهيب، درجة الاختلاف والتعقيد التي مزقت وحدتنا الكاملة التي كانت بادية حتى الآن.

ولا شك في أن قلة منا قد عرفوا فوراً أو أنهم تشككوا في أن ليون لم يتعرض لأي أذى ولم يهرب بل إنه قد استدعي سراً من قبل مسؤولي الرابطة. ولكن ما من أحد منا يستطيع أن يتذكر، دون إحساس بالندم والخجل والعميقين، كيف اجتزنا هذا الامتحان. ما إن تركنا ليون حتى انتهى من بيننا الإيمان والانسجام، كما لو أن الدم في مجموعتنا قد نزف من جرح غير مرئي. في البدء كان هناك خلاف في الآراء، ثم مشاجرات لا تنتهي حول أكثر المسائل سخفاً وعمقاً. أتذكر، مثلاً، أن قائد الكورس الشعبي جداً والممتاز جداً هـ. هـ. ادعى بغتة أن ليون المفقود قد أخذ معه في حقيبته، إضافة إلى أغراضه ثمينة أخرى، الوثيقة المقدسة القديمة، المخطوطة الأصلية 'الأستاذ'. لقد ثار النزاع بحرارة حول هذا القول عدة أيام. وعند معالجة قول هـ. بأسلوب رمزي، فإن تأكيده الغريب كان ذا أهمية فائقة فعلاً؛ فلقد بدا فعلاً أن سعادة الرابطة وتوافق المجموع قد غابا تماماً مع رحيل ليون عن مجموعتنا الصغيرة. والموسيقي هـ. ذاته كان مثالاً محزناً على ذلك. فحتى يوم وصولنا إلى وادي موريبو كان واحداً من أكثر الأخوة في الرابطة إيماناً وولاء إضافة إلى شعبيته كفنان. وعلى الرغم من ضعف شخصيته كان واحداً من أكثر أعضائنا نشاطاً. إلا أنه غرق في الكآبة والإحباط وانعدام الثقة وصار أكثر من مهمل لواجباته، وصار ميالاً إلى عدم التسامح والعصبية والمشاكسة. وأخيراً تخلف عن المسير ذات يوم ولم يظهر بعدها. ولم يخطر لأحد أن يتوقف من أجله ويبحث عنه. كان من الواضح أنها عملية فرار. ولسوء الحظ لم يكن هو الشخص الوحيد... وفي النهاية لم يتبق شيء من مجموعتنا الصغيرة المسافرة...».

ووجدت هذا المقطع في كتابة المؤرخ الآخر:

«تماماً كما أن روما قد انهارت بعد موت قيصر، أو كما انهار التفكير الديموقراطي في العالم عند تخلي ويلسون عن مبادئه، كذلك فإن رابطتنا قد تحطمت في يوم موريبو المشؤوم. وبمقدار ما يمكن التحدث عن اللوم والمسؤولية فإن عضويين غير مؤذيين ظاهرياً هما المسؤولان عن الانهيار: الموسيقى هـ. هـ. وليون، وهو أحد الخدم. كان هذان الشخصان فيما مضى يتمتعان بشعبية كبيرة وكانا عنصرين مؤمنين بالرابطة ومخلصين لها، على الرغم من النقص في فهمها لدورها المهم في تاريخ العالم. اختفيا ذات يوم دون أن يتركا أثراً، وبعد أن أخذا معهما كثيراً من الأغراض الثمينة والوثائق المهمة، الأمر الذي يدل على أن هذين التعيسين قد تلقيا رشوة من أعداء الرابطة...».

إن كانت ذاكرة هذا المؤرخ مشوشة ومعدومة الدقة بهذا المقدار، على

الرغم من أنه قد أعد تقريره كما هو واضح بكل إيمان وبقناعة بدقته التامة، فما هي قيمة ملاحظاتي؟ وإذا تم العثور على عشرة تقارير أخرى عن موريبو وعن ليون وعني فمن المتوقع أن تكون كلها متناقضة وسيسفه كل منها الآخر. أبداً. إن جهودنا التاريخية غير مجدية، ولا معنى للاستمرار فيها ولا لقراءتها. يستطيع المرء أن يتركها مغطاة بالغبار في هذا القسم من الأرشيف.

عبرت جسدي رعشة عندما فكرت فيما ما زال عليَّ أن أعرفه في هذه الساعة. كم أن كل شيء منحرف ومتغير ومشوه وكذلك كل شخص في هذه المرايا، وكم هو مضحك وغير حقيقي حين يخفي وجه الحقيقة نفسه وراء هذه التقارير والتقارير المضادة والخرافات! ما الذي ظل حقيقياً؟ وما الذي ظل يمكن تصديقه؟ وما الذي سيتبقى حين أعرف عن نفسي أيضاً، عن شخصيتي وتاريخي من المعرفة المخزّنة في هذا الأرشيف؟

يجب أن أكون مستعداً لأي شيء. بغتة لم أعد قادراً على تحمل الشك وعدم الثقة. أسرعت إلى قسم (شاتو روم رس غستوي) تطلعت إلى الجزء المخصص لي والرقم، ووقفت أمام القسم الذي عليه اسمي. كانت تلك مشكاة، وحين أزحت الستائر الرقيقة رأيت أنها لا تحتوي على شيء مكتوب. لا شيء إلا هيكل، نموذج عتيق مهترئ مصنوع من الخشب أو الشمع وبألوان شاحبة. وبدا لي أنه نوع من الأصنام الهمجية أو الإلهية. عند النظرة الأولى بدت لي مستغلقة على الفهم تماماً. وكان هيكلاً يحتوي عملياً على اثنين لهما ظهر واحد. حدقت إليه فترة من الزمن منزعجاً ومندهشاً، ثم لاحظت وجود شمعة في حامل معدني مثبت على جدار المشكاة، وعلبة كبريت إلى جانبه. أشعلت الشمعة فظهر هيكل مزدوج غريب مضاء بشكل واضح.

ببطء فقط بدأت الفكرة تبزغ أمامي. ببطء فقط وبالتدريج بدأت أتشكك ثم أدرك ما الذي كان المقصود أن يمثله. كان يمثل شكلاً لي. وهذا الشبه بي كان ضعيفاً بشكل مزعج ونصف حقيقي. كانت له ملامح غائمة، وكان في تعابيره شيء قلق وضعيف وميت أو راغب في الموت، ويبدو كأنه قطعة من النحت يمكن أن تسمى «الزوال» أو «الموت» أو أي شيء مشابه. من جهة أخرى كان الشكل الآخر الملتصق بهيكلي، ليشكل معه هيكلاً واحداً، قوياً في ألوانه وفي شكله، وحالما بدأت أدرك من يمثله وهو تحديداً الخادم والرئيس ليون اكتشفت شمعة ثانية في الجدار وأشعلتها هي الأخرى. واستطعت الآن أن أرى الهيكل المزدوج الذي يمثل ليون وأنا، ليس فقط أنه أصبح أكثر وضوحاً وكل صورة أكثر شبهاً بصاحبها، بل إنني

رأيت أيضاً أن سطح الهيكلين كان شفافاً وأن في وسع المرء أن ينظر إلى داخلهما كما ينظر عبر زجاجة. داخل الهيكلين رأيت شيئاً يتحرك ببطء، ببطء شديد، بالطريقة ذاتها التي تتحرك فيها أفعى نائمة. كأن شيئاً ما يحدث هناك، مثل التدفق البطيء الناعم والمستمر أو مثل الذوبان، فعلاً كان هناك شيء يذوب أو ينسكب من صورتي إلى صورة ليون. وأدركت أن صورتي كانت في طور الانضمام إلى صورة ليون والانصهار فيها لتغذيتها وتقويها. وبدا أنه، مع الوقت، ستذوب مادة الصورة الأولى كلها وتنسكب في الثانية بحيث تبقى صورة واحدة هي صورة ليون. يجب أن ينمو. ويجب أن أختفي.

وفيما كنت واقفاً وأنا أتطلع وأحاول أن أفهم ما أرى تذكرت محادثة قصيرة قمت بها ذات مرة مع ليون خلال أيام الاحتفال في بريمغارتن. كنا قد تحدثنا عن أن مخلوقات الشعر أكثر حيوية وحقيقية من الشعراء أنفسهم.

انخفض ضوء الشمعتين وانطفأتا. سيطر عليَّ تعب هائل ورغبة في النوم، فالتفتُّ مبتعداً لأبحث عن مكان أستطيع أن أضطجع فيه وأنام.

تيموثي ليري

ولد هرمان هسه في تموز 1877، في مدينة كالو السوابية الصغيرة، ابناً لمبشرين بروتستانتيين. كانت خلفيته وتربيته البيتية تقوية، ثقافية، كلاسيكية. التحق بمعهد لاهوتي في الرابعة عشرة من عمره بهدف أن يصبح كاهناً وغادره بعد عامين. وتعلم في بازل تجارة الكتب وصار يكسب معيشته من بيع الكتب، ومن نشر النصوص الأدبية الألمانية الكلاسيكية. تعرف بجاكوب بركهاردت، المؤرخ والفيلسوف السويسري العظيم، الذي استخدمه في ما بعد نموذجاً لتصوير الأب جاكوبوس في «لعبة الكريات الزجاجية». في عام 1914 أوقعه موقفه «اللاوطني» ضد الحرب تحت طائلة التعنيف الرسمي وعرضه لهجمات الصحف. وبعد شهرين من اندلاع الحرب نشرت مقالة بعنوان «ليس بهذه اللهجة أيها الأصدقاء» في «نويه زوريشا تسايتونغ» – صحيفة «زيوريخ الجديدة»، وكانت نداء موجهاً لشباب ألمانيا، ترثي للاندفاعات الهوجاء نحو الكارثة.

في 1911 سافر إلى الهند. وبين 1914 و1919 عاش في بيرن موظفاً في السفارة الألمانية كمساعد لأسرى الحرب. وقد واكبت أزمة الحرب الخارجية سلسلة من الأزمات الشخصية، مات والده، ووقع ابنه الأصغر في مرض خطير، وانهارت أعصاب زوجته فنقلت إلى المستشفى. وفي عام العام 1919، عام نشر رواية «دميان»، انتقل إلى قرية مونتانيو الصغيرة على بحيرة لوغانو وبقي فيها حتى نهاية حياته. في العام 1923 تجنس بالجنسية السويسرية، وفي العام 1927 تزوج مرة ثانية. أغرق هيسه نفسه في أدب الصين والهند وفلسفتهما، وقد تعرف على هذه الفلسفة من خلال الترجمات الرائعة التي قام بها ريتشارد فلهلم للنصوص الصينية. في العام 1931 تزوج للمرة الثالثة وانتقل إلى بيت جديد في مونتانيو قدمه إليه صديقه هـ. س. بودمر. في العام 1964 نال جائزة نوبل وفي العام 1962 مات في الخامسة والثمانين من عمره. حين سئل مرة عن أهم المؤثرات في حياته قال إنها «روح بيت أبوي المسيحية واللاوطنية أبداً» و«قراءة الروائع الصينية» و«شخصية المؤرخ جاكوب بركهاردت».

قليلون هم الكتاب الذين أرخوا بهذا الوضوح النزيه وبهذه الأمانة الجسور لتطور الروح عبر مراحل الحياة. بيتر كاميتتسيند (1904) ودميان (1919) وسدهارتا (1922) وذئب السهوب (1927) ونرسيس

وغولدموند (1930) والرحلة إلى الشرق (1932) والأستاذ لودي (1943) وهي صيغ مختلفة لسيرة ذاتية روحية، ومصورات مختلفة لطريقة جواني. فكل خطوة جديدة تنقح صورة الخطوات السابقة كلها، وكل تجربة تفتح عوالم جديدة من الاستكشاف في جهد مستمر للتواصل مع الرؤيا.

يحب جون كيج أن يذكرنا دائماً أن الكتابة شيء والقراءة شيء آخر. الكتابات كلها يساء فهمها، وكذلك يساء فهم الكتاب كلهم. كثير من الحكماء لا يكتبون لأنهم يعرفون هذه الحقيقة. الرجل الحكيم هو الذي تجاوز الستارة اللفظية فرأى مسيرة الحياة معرفها وأحس بها. ونحن ندين له بالامتنان حين يبقى معنا ويحاول أن يدفعنا لمشاركته فرحته.

إن الكاتب العظيم هو الرجل الحكيم الذي يرى نفسه مضطراً إلى نقل الرسالة إلى كلمات. والرسالة هي، طبعاً، حولنا وفينا في كل وقت. كل شيء مفتاح. وكل شيء يتضمن الرسالة كلها. وليس ضرورياً التعبير عنها بالرموز، ولكن لعله يكون أعظم إنجاز يحققه الإنسان.

يكتب الحكماء (بتروٍّ) بسرية. إنها طريقة صنع زهرة أو طفل. والشكل السري (مايا) الواجهة الهلوسية. المعنى متضمن. وعظمة كتاب عظيم تكمن في المعنى السري، الجذري، المتخفي وراء شبكة الرموز. الكتاب العظماء كلهم يكتبون الكتاب ذاته مغيرين فقط زخارفهم الخارجية، كالزمن والشعب.

هرمان هيسه واحد من كتاب عصرنا العظماء. لقد كتب «يقظة فينيغان» في عدة صيغ ألمانية، وبالإضافة إلى كونه حكيماً فقد استطاع أن يتلاعب بالكلمات إلى درجة نيل جائزة نوبل.

كثير من القراء يتوهون عن رسالة هيسه. فلأنهم مأسورون بالرقصة الجميلة للعقدة والموضوع يتجاوز نظرهم الرسالة الجذرية. هيسه مخادع. مثل الطبيعة في نيسان يكسو شيفرته السرية بريش خيالي. ويلتقط القارئ الأدبي الثمار ويأكلها بسرعة ويلقي بالبذرة إلى الأرض. ولكن الجذر، الرسالة الكهربائية، الشيفرة، موجودة في البذرة.

ولنأخذ سدهارتا - الكتاب الأول للصفوة، والذي كُتب حين كان هيسه في الخامسة والأربعين. ولننظر إلى الساحر العجوز وهو يتهيأ لعمله. إنا نتعرف على شاب متكبر قوي أنيق متين وبهي. سدهارتا شاب وطموح. إنه يطمح لتحقيق أعظم الجوائز - التنوير. الرحلة الكونية الوحيدة. إنه يسيطر على الألعاب الدنيوية الأخرى. الفيدا. الصوفية. ويطرح مواهبه

أمام بوذا نفسه. نجاح دنيوي نيزكي. « إننا نجد عزاءات ونتعلم حيلاً نخدع بها أنفسنا إلا أن الأمر الجوهري – الطريق - فإننا لا نجده»، «الحكمة لا يمكن إيصالها»، «أستطيع أن أحب حجراً يا غوفندا أو شجرة أو قطعة لحاء. هذه أشياء. وفي وسع المرء أن يحب الأشياء. إلا أن المرء لا يستطيع أن يحب الكلمات... النيرفانا ليست شيئاً، هناك فقط كلمة نيرفانا». ثم في الصفحات الأخيرة من الكتاب يستخدم هرمان هيسه، الروائي الحائز على جائزة نوبل، الكلمات ليصف إشراقة غوفندا الذي:

«لم يعد يرى صورة صديقه سدهارتا. بدلاً منها كان يرى وجوهاً أخرى، وجوهاً عديدة، سلسلة طويلة، سيلاً متواصلاً من الوجوه - مئات وآلافاً وكلها تأتي وتختفي، ولكنها كلها تبدو وكأنها موجودة هناك في وقت واحد، وكلها تتغير وتجدد نفسها دائماً وكلها أيضاً كانت سدهارتا. لقد رأى وجه سمكة، وشبوطاً بأفواه عديدة فاغرة رهيبة، وسميكة ميتة بعينين قاتمتين. رأى وجه طفل حديث الولادة، أحمر ومليئاً بالتجاعيد، وعلى وشك البكاء. رأى وجه قاتل وراه يغرس سكينه في جسد إنسان، وفي اللحظة ذاتها رأى المجرم يركع ويلتوي وقد قطع جلاد رأسه.

رأى أجساداً عارية لرجال ونساء في وضعيات حب متوهج وفي نشوته. رأى جثثاً ممددة ساكنة باردة وفارغة. رأى رؤوس حيوانات، خنازير وتماسيح وفيلة وثيراناً وطيوراً. رأى كريشنا وأغني[1]. رأى هذه الأشكال والوجوه كلها في ألف علاقة فيما بينها، كل منها يساعد الآخر يحبه، يكرهه، يدمره ويجعله يولد من جديد. كل منها فان، نموذج عاطفي مؤلم لكل ما هو انتقالي. إلا أن أحداً بينها لم يمت، إنها تتغير فقط وتعود إلى الولادة من جديد. ودائماً لها وجه جديد: وكأن الزمن يتوقف بين وجه وآخر. وهذه الأشكال والوجوه كلها كانت تستقر وتفيض ونعاد صياغتها، وتمضي ثم يظهر كل منها في الاخر، وفوقها كلها كان دائماً هناك شيء رقيق وغير حقيقي إلا أنه موجود، وممدد بينها مثل زجاج رقيق أو جليد، مثل جلد شفاف، أو صدفة أو شكل أو قناع من المهاء - وكان هذا القناع هو وجه سدهارتا الباسم الذي كان غوفندا يلمسه بشفتيه في تلك اللحظة. ورأى غوفندا أن هذه الابتسامة الشبيهة بالقناع، هذه البسمة الموحدة فوق الأشكال العابرة، هذه البسمة من التواقت فوق آلاف الولادات والميتات - بسمة سدهارتا - كانت تماماً مثل البسمة الهادئة الناعمة اللامفهومة، والتي ربما كانت مجيدة أو ساخرة، البسمة الحكيمة ذات الألف معنى، بسمة غوتاما، بوذا، وهو يراها متألماً مئة مرة. لقد عرف غوفندا أن (الكامل) يبتسم بهذه الطريقة».

أولئك الذين جربوا البرمشات المخدرة يمكن أن يعرفوا أن رؤيا غوفندا هي نتيجة تقليدية لـ(ال. اس. دي). المواجهة الرؤيوية المباشرة لوحدة البشر كلهم، لوحدة الحياة. إن قدرة هيسه على كتابة كلمات مثل: وحدة، حب، نيرفانا، مسألة مفهومة بسهولة كل كتاب هندوسي يعطيك المصطلحات. لكن وصفه لهذه التفاصيل الرؤيوية في الرؤيا الكونية، وللتفصيلات الشبكية، هو المؤثر. من أين جاءت لهيسه هذه الأحاسيس المحددة؟ إن التشابه بينها وبين تجربة المخدرات الموسعة للوعي يثير الارتياك. هذا «التشابه» التفصيلي التحديدي للحظة الإشراقية يفوت فيلسوف الصوفية التجريدي عادة. هل وصل هيسه إلى هذه الحالة الرؤيوية بنفسه؟ بالتأمل؟ عفوياً؟ وهل استخدم هـ. هـ. المؤلف نفسه الطريق الكيميائي للوصول إلى الإشراق؟

تأتي الإجابة على هذه الأسئلة في الدرس الثاني من الأستاذ: ذئب السهوب - وهي رواية عن أزمة وألم وصراع وعذاب - على الأقل في مظهرها. لقد كتب هيسه في رسالة: «لو لم تكن حياتي تجربة خطرة مؤلمة، ولو أنني لم ألتف حول الهاوية وأحس بالفراغ تحت قدمي، لما كان لحياتي أي معنى ولما كنت قادراً على كتابة أي شيء». إن معظم القراء المبهورين بالدينامو - نفسية يرون الدراما المقدمة - الصراع بين الأنا والهو، بين الروح والحضارة المادية، «الغرائز الذئبية الشيطانية التي تتبقى حتى في نفوسنا المتحضرة» مثلما يقدمها غلاف الطبعة الشعبية. ويكتب هيسه «إن هؤلاء القراء قد فاتهم أنه فوق ذئب السهوب وحياته الإشكالية هناك عالم ثان أسمى ولازمني... يواجه معاناة ذئب السهوب بعالم من الإيمان متجاوز للشخص ومتجاوز للزمن، وأن الكتاب يحكي بالطبع عن الألم والمعاناة، إلا أنه قصة مؤمن وليس قصة عن اليأس». وكما هو الحال في سدهارتا، يقوم هيسه بجر القارئ إلى حكايته الخيالية، وإلى أفكاره وبهلوانياته الذهنية لمجرد أن يبين في النهاية أن البنيات كله لعبة ذهنية وهمية. إن البساط العقلي يُسحب بغتة من تحت القارئ السايكو ديناميكي الساذج. وهذه الحيلة الزنية[2] واضحة على مستويين على الأقل في ذئب السهوب. أولاً في «البحث» الصغير، الصورة المشرقة لهاري، الرجل ذي الروحين: الإنسان الصافي البارع المثير، والذئب-المتوحش، النفور الخطر القوي. ويصف البحث تقلب مزاجه، وانفجاراته الإبداعية، وعلاقته المتكافئة مع البورجوازية، وتعلقه بالانتحار، وعجزه عن تحقيق التواؤم بين النفسين المتصارعين. تحليل نفسي غريب أخاذ ثم خفة اليد! هناك وهم أساسي يجب توضيحه. كل تفسير، كل سيكولوجيا، كل محاولة

لجعل الأشياء مفهومة، يتطلب وساطة النظريات والميثولوجيا والأكاذيب، وإن الكاتب الذي يحترم نفسه يجب عليه أن يبدد هذه الأكاذيب قدر استطاعته... إن لدى هاري مئة نفس أو ألف نفس وليس لديه نفسان فقط. وحياته تتأرجح مثلما تتأرجح حياة كل إنسان، ليس بين قطبين فقط، كما هو الحال بين الجسد والروح، أو بين القديس والخاطئ، بل بين آلاف الأقطاب... الإنسان بصلة مؤلفة من مئات القشور، ونسيج محبوك من خيطان عديدة. لقد عرف الآسيوي القديم هذا الأمر جيداً. وفي اليونغا البوذية استنبط تكنيك ملائم للكشف عن وهم الشخصية. إن الدوامة البشرية تواجه تغيرات عديدة: الوهم الذي كلف الهند جهود آلاف السنوات للكشف عنه هو الوهم ذاته الذي أجهد الغرب نفسه ليدعمه ويقويه.

توصف الصورة الذاتية الازدواجية - المجاز الفرويدي المغري والقسري - ثم تعرض كوهم: أي كعلبة عقلية محدودة ذات منظور تافه. المثال الثاني على هذه الخدعة يحدث في نهاية الكتاب. لقد تتبعنا هيسه في أوصافه لهاري وهو يمر في سلسلة من المحولات العبثية للتغلب على يأسه - من خلال الكحول والجنس والموسيقى والصداقة مع الموسيقي الغريب بابلو، وأخيراً يدخل المسرح السحري. «أمير القبول، عقلك». بتعبير آخر: تجربة فقدان العقل.

«من فجوة في الجدار أخذ (بابلو) ثلاث كؤوس وزجاجة صغيرة طريفة... ملأ الكؤوس من الزجاجة، ثم أخذ ثلاث سجائر طويلة ورفيعة صفراء من العلبة وعلبة كبريت من جيب سترته الحريرية وأشعل لنا... كان تأثيرها منعشاً ومفرحاً إلى درجة لا توصف - كان المرء معبأ بالغاز، ولم يعد له أي وزن».

ويقول بابلو:

«كنتم تجاهدون من أجل الهرب أليس كذلك؟ إنكم تتوقون إلى هجر هذا العالم وواقعه وأن تتوغلوا إلى واقع أكثر فطرية بالنسبة إليكم، إلى عالم وراء الزمن... وأنتم تعرفون، طبعاً، أين يختبئ هذا العالم الآخر. العالم الذي تبحثون عنه هو عالم أرواحكم ذاتها، لا يوجد إلا في دواخل نفوسكم ذلك الواقع الذي تتوقون إليه... وكل ما أستطيع تقديمه إليكم هو الفرصة، الدافع، المفتاح. أساعدكم على جعل عالمكم مرئياً... ولهذا... المسح من الأبواب المؤدية إلى المقاصير قدر ما تشاؤون، عشرة أبواب أو مئة أو ألف، ووراء كل باب ينتظركم ما تبحثون عنه تماماً. ولقد ضمنتم بلا شك أن التغلب على الزمن أو الهرب من الواقع، أو مهما كان ما يمكن أن

نختاره من أسماء لتوقعكم، يعني ببساطة الرغبة في التخلص مما يسمى بشخصياتكم. فهي السجن الذي وضعتم فيه. وإذا ما دخلتم المسرح كما أنتم فإنكم سترون كل شيء بعيون هاري، وسترون المشاهد القديمة في ذئب السهوب ذاتها. ولذا فإنه من المطلوب منكم أن تنحوا هذه المشاهد جانباً، وأن تتلطفوا بترك شخصياتكم الموقرة هنا في حجرة الودائع حيث ستجدونها متى أردتم. وربما أن الرقصة اللطيفة التي أتيتم منها الآن، وموضوع ذئب السهوب، والحافز الصغير الذي تشاطرناه في هذه اللحظة، قد ساعدت كلها على تهيئتكم بما فيه الكفاية».

يبدو واضحاً أن هيسه يصف تجربة مخدرات، عملية فقدان للنفس من خلال استخدام العقاقير المخدرة، أي رحلة إلى العالم الداخلي. ولكل باب في المسرح السحري علامة تشير إلى الاحتمالات اللامتناهية للتجربة. علامة: «صيد بهيج. مطاردة عظيمة بالسيارة» تفتتح العربدة الخيالية للتدمير الآلي التي يصبح فيها هاري قاتلاً شبقاً. وتقول علامة أخرى «دليل بناء الشخصية. النجاح مضمون» وهي تشير إلى نوع من لعبة الشطرنج تكون القطع فيها أجزاء من الشخصية. علاج نفسي كوني. «إننا نؤكد لكل من تمزقت روحه أشلاء بأنه صيغة يشاء، وبهذا يحقق تنوعاً لانهائياً من التحركات في لعبة الحياة» وتقول علامة أخرى: «الفتيات كلهن لك»، وتنقل هاري إلى حوادث جنسية خيالية لا تعرف الشبع. إن أزمة ذئب السهوب، وصراعاته الداخلية، ويأسه، وحالته المرضية وتوقه الذي لا يرتوي كلها تتحلل في هلوسات عاصفة لا حصر لأشكالها. «كنت أعرف أن المئة ألف قطعة من لعبة الحياة كلها في جيبي. ولقد أثارت عقلي ومضة من معناها فقررت أن أبدأ اللعبة من جديد. سأختبر عذاباتها مرة أخرى وأرتعش في فقدان الإحساس فيها. وسأتخطى، ليس مرة أخرى بل كثيراً من المرات، جحيم كياني الداخلي. وذات يوم سأصبح أكثر خبرة في اللعب. ذات يوم سأتعلم كيف أضحك. لقد كان بابلو ينتظرني وكذلك موزارت».

«وهكذا عقد هاري هالر، ذئب السهوب، جلسته التخديرية، وبدلاً من أن يكتشف واقعاً واحداً اكتشف وقائع لا حصر لها داخل عقله. لقد تم قبوله داخل المجموعة المختارة من أولئك الذين عبروا الستار اللفظي إلى حالات أخرى من الوعي. لقد انضم إلى أخوة الإشراق النخبوية».

ثم ماذا؟ إلى أين تذهب من هناك؟ وكيف يمكن الحفاظ على الإحساس المقدس بالوحدة والكشف؟ هل يعود الإنسان إلى الغرق في العالم المنوم للعاصفة الصماء، وللعقل المؤتمت والفردانية؟ الصرخة الحادة

التي يطلقها العضو السابق هـ. هـ.

«إننا كلنا تقريباً، وأنا أيضاً، حتى أنا، يجب أن أضيع نفسي في الصحارى الصامتة للواقع المنظم المرتب، تماماً مثل المسؤولين وعمال الحوانيت الذين، بعد حفلة أو نزهة الأحد، يلائمون أنفسهم من جديد مع حياة الشغل اليومية!».

تلك مسائل يواجهها كل من مر في تجربة عميقة متجاوزة للذات. كيف نحافظ على الطزاجة ونضيء كل ثانية في الحياة الثانية؟ وكيف يمكن ان نحافظ على اتحادنا المنتشي بالآخرين؟

عبر العصور كانت الجماعات الباطنية قد تهيأت لتقديم بنية اجتماعية ودعم للتجاوز. الحلقة الصحية. هذه المذاهب، وهي غالباً سرية ومضطهدة دائماً من قبل الأكثرية التي تسير نائمة، تتحرك بهدوء في خلفية التاريخ. والمشكلة هي طبعاً كمية البنيان المحيط بالشرارة. كثير من التعجل وتصبح طقوس القداسة في متناول اليد، ويتلاشى اللهب. أقل من اللازم ليجعل المهمة التعليمية تضيع وتتحول للوحدة بين الأشخاص إلى فوضى مهلهلة. البوهيميون. وجوديو السلوك. المتعالون الوحدانيون.

وبمعزل عن الصلة بالنفس وبالألاعيب الاجتماعية وبالإنسانية المتجسدة وحتى بالحياة ذاتها، فإن الروح المتنورة تستطيع أن تدعم المهمة السامية بالطاقة التي تطلقها تجربة التخطي. لكن أناساً كهؤلاء قلة في أي عصر. البقية منا يبدو أنها تحتاج إلى الدعم في طريقها، والذين يحاولون انتهاج طريق المخدرات على مسؤوليتهم يقللون من قيمة قوة الجهاز العصبي وآفاقه. إن تنوع حوادث الـ(ال. اس. دي) تؤدي إلى: انهيار، تشوش، حماقة، فرادنية الصولو، شذوذ مشتت، لؤم عميق، وتراجع إلى الخضوع. ولا معنى لإلقاء التبعية على المخدر في حوادث كهذا إلا كإلقاء التبعية على العمليات النووية في مسألة القنبلة. أولاً يكون أكثر دقة أن نأسف على الضغوط القبلية البدائية التي تمارس على القدرة الشخصية والنجاح والفردية؟ لقد أشار هوستان سميث إلى أنه بين طرق بوذا الثمانية يكون الطريق التاسع والأعظم هو التجمع الصحيح. الجماعة المتجاوزة للشخصي. في التوسع الواعي. بعد الرؤيا، بعد الجلسة التخديرية، أحط نفسك بأصدقاء يشاركونك الهدف يستطيعون أن يرتقوا بك عن طريق الأمثولة أو الحب الموحد، ويستطيعون أن يساعدوا على استعادة الإشراق.

سيسيولوجيا التخطي. إن هيسه يعالج مشكلة مجموعة التخطي في

صيغة رابطة العابرين إلى الشرق.

«كان لي نصيب المساهمة في تجربة عظيمة. ولما كان لي حسن حظ الانتماء إلى الرابطة فقد سمح لي بأن أكون مشاركاً في رحلة فريدة». يقول الراوي هـ. هـ إن نقطة بداية الرحلة هي ألمانيا، وإن الزمن هو ما بعد الحرب العالمية الأولى بقليل. «كان شعبنا عرضة لأوهام عديدة إلا أنه كان هناك أيضاً خطوات متقدمة روحية حقيقية عديدة. كانت هناك جمعيات الرقص الباكانالي وجمعيات تجديد العماد، وكان هناك تتالٍ لأشياء يأتي واحدها بعد الآخر وكان يبدو أنها تشير إلى ما هو مدهش وإلى ما وراء الحجب» وكانت هناك أيضاً جماعات علمية وفنية منشغلة باستكشاف المخدرات الموسعة للوعي. ولكن دراسة كيرت بيرنجر «أثر المسكالين» تصف بعض التجارب العلمية وتطبيقاتها الإبداعية. ورواية رنيبه دومال «جبل القرين» هي وصف رمزي لرحلة رابطة مشابهة إلى فرنسا. وكان المشاركون يتعاطون المخدرات بكثرة مثل الحشيش والمسكالين - مخدر من نباتات مكسيكية – ورابع كلوريد الكربون.

لا يسمي هيسه بوضوح أي نوع من المخدرات في كتابته. ولكن المقاطع المأخوذة فيما سبق من «ذئب السهوب» لا نظير لها في البت لأن بعض المواد الكيماوية كانت تستخدم وأن لها علاقة مباشرة بالتجربة اللاحقة. وبعد هذا التنوير الأولي يحكي هـ. هـ. «الرحلة إلى الشرق» عن زيارات لاحقة إلى «المسرح السحري»:

«لم نكن نتجول في المكان فقط، بل وفي الزمان أيضاً. كنا نتحرك نحو الشرق لكننا كنا ننتقل أيضاً إلى العصور الوسطى والعصر الذهبي. كنا نتجول في إيطاليا أو سويسرا، ولكننا في الوقت ذاته أحياناً كنا نقضي ليلة في القرن العاشر ونعاشر البطاركة أو الجنيات. وفي الأوقات التي كنت أقضيها وحيداً كثيراً ما كنت أجد أماكن وأناساً من ماضيّ الخاص، تجولت مع خطيبتي السابقة في أطراف الغابة على ضفة الراين الأعلى وسكرت مع أصدقاء الصبا في توبنجين أو بازل أو فلورنسا، أو كنت أعود صبياً أذهب مع زملاء الدراسة لاصطياد الفراشات أو للتفرج على القضاعة، أو تكون صحبتي من الشخصيات التي أحببتها في كتبي... ذلك لأن هدفنا لم يكن الشرق وحده، أو أن الشرق لم يكن مجرد بلاد أو شيء جغرافي، بل كان وطن الروح وشبابها. كان (الشرق) في كل مكان ولم يكن في أي مكان؛ إنه وحدة الأزمنة كلها».

فيما بعد تصبح الصلات بين التحرر التخديري في «ذئب السهوب»

وبين الرابطة أكثر وضوحاً:

«حين يضيع شيء ثمين ولا يمكن استرداده نحس أننا قد استيقظنا من حلم. وكان هذا الشعور في حالتي صحيحاً بشكل غريب، لأن سعادتي كانت تنبع فعلاً من حرية تجريب كل شيء يمكن تصوره في وقت واحد واستبدال الخارجي بالداخلي بسهولة وتحريك الزمان والمكان كمشاهد في مسرح».

هيسه دائماً هو البراعة النخبوية، إلا أن مما لا شك فيه أن تحت سطح حكايته الرمزية الشرقية يمر تاريخ الأخوة المخدراتية في الحياة الحقيقية. والتجارب الرؤيوية التي يصفها في «الرحلة إلى الشرق» معروفة من خلال المكان وأسماء المشاركين. وقد تتبعت في سيرة حياته المنشورة مؤخراً، العلاقات بين هذه الأسماء والأماكن وبين أصدقاء هيسه ونشاطاته في ذلك الحين.

«ومرة بعد أخرى، في سوابيا أو في بودنسي أو في سويسرا أو في أي مكان آخر كنا نقابل أناساً يفهموننا أو يكونون ممتنين بطريقة ما لأننا، نحن ورابطتنا ورحلتنا إلى الشرق، موجودون. بين خطوط الترام وبنوك زوريخ صادفنا (فلك نوح) تحرسها كلاب كهلة تحمل كلها الاسم ذاته، وكان يرشدها بشجاعة عبر المياه الضحلة للفترة الهادئة هانسي سي، حفيد نوح، صديق الفنون».

هانس. سي. بودمر صديق لهيسه وهو الذي أهدي إليه هذا الكتاب، وهو الذي اشترى، فيما بعد، البيت لهيسه في مونتانيو. في ذلك الحين كان يعيش في بيت في زوريخ اسمه «الفلك».

«كان من أجمل التجارب احتفال الرابطة في بريمغارتن. هناك أحاطت بنا الدائرة السحرية. استقبلنا ماكس وتيلي، سيدا القلعة...».

كانت قلعة بريمغارتن، قرب بيرن، بيت ماكس فاسمر حيث كان هيسه غالباً ما ينزل ضيفاً. ويدل «الملك أسود» في فنترثر على صديق آخر، جورج رينهارت، الذي كان هيسه كثيراً ما يدعى إلى بيته «المليء بالأسرار». وأسماء الفانين والكتاب التي تمر في (الرحلة إلى الشرق) إما أنها، مباشرة، أسماء شخصيات تاريخية حقيقية أو أنها مشتقة منها مباشرة: لوسشر، كلينغسور، بول كلي، نينون (زوجة هيسه) هيجو، وولف، برنتانو، لندهورست وغيرهم. بمعنى اخر يبدو من المحتمل أن المشاهد الموصوفة تعتمد على التجارب الفعلية لمجموعة من الأصدقاء الحميمين الذين كانوا يلتقون في بيوت بعضهم جنوبي ألمانيا وسويسرا ويقومون

بالرحلة إلى ما كان (ليس مجرد بلاد أو شيء جغرافي، بل كان وطن الروح وشبابها. كان في كل مكان ولم يكن في أي مكان إنه وحدة الأزمنة كلها). وهكذا توحي المفاتيح بأنه في لحظة من «الحقيقة التاريخية» قام كاتب اسمه هرمان هيسه وأصدقاؤه بالتجول معاً في المهرجانات اللامحدودة للوعي المتوسع، ونزلوا إلى أرشيف النشور. ثم، كما يبدو، يفقد هـ. هـ صلته ويعود إلى عقله وإلى منظوره الذاتي. «تشتت رحلة الحج... وتلاشى السحر شيئاً فشيئاً» لقد زل خارج تيار الحياة إلى عقلانية الروبوت. ويريد هـ. هـ أن يصبح كاتباً وأن ينسج بالكلمات قصة حياته. «أنا، ببساطتي، كنت أريد أن أكتب قصة الرابطة، أنا الذي لم أكن أستطيع أن أحلل أو أفهم جزءاً من الألف من هذه الملايين من الوثائق والكتب والصور والمراجع التي في الأرشيف».

الأرشيف؟ المكتبة القشرية الدماغية؟

وإذاً، ماذا كانت الرابطة؟ وما هي؟ أهي الجماعة البسيطة التي يرأسها الرئيس الملفع بالذهب ليون، صانع العطور والأدوية العشبية، وناطق وعرش سام وقاعة مجلس موسع؟ ليست هذه سوى أفخاخ سطحية. أو ليست الرابطة هي «موكب المؤمنين والحواريين... المتقدم دون توقف... والمتجه نحو الشرق، نحن موطن النور»؟ كان تيار الحياة يتعاظم دائماً. ووحدة عملية النشوء تُبعثرها وتُجمِّدها أوهام الفردية» فيض أو ذوبان بطيء جداً وهادئ ولكنه مستمر... وكان يبدو أنه، مع الزمن، ستفيض مادة إحدى الصورتين كلها إلى الأخرى ولن يتبقى إلا واحدة...».

كثيرون ممن لهم صلة مباشرة بسير الحياة من خلال جلسات المخدرات أو التجربة الصوفية العفوية يجدون أنفسهم تواقين إلى بينة اجتماعية، شكل خارجي يعدل في تجاربهم التجاوزية.

وهرمان هيسه مرة أخرى يقدم لنا تعليمات نخبوية. تطلع إلى الداخل. الرابطة في الداخل وكذلك الأرشيف الذي يعود في تاريخه إلى بليوني سنة: دماغك. أرهقه قمع أولئك الذين سيرقصون معك، ولكن تذكر أن الأشكال الخارجية المتمايزة وهمية. الاتحاد داخلي. الرابطة فيك ومن حولك دائماً.

ولكن أن تكون إنساناً يعني أن تكون عقلانياً. الهوموسابيان يريد أن يعرف وهذا هو التوجه القديم. أن تكون، أن تعرف، جميل. إن للساحر تعويذاته التي يحبكها هنا أيضاً. العقل المنفصل عن العصاب العتيق والمتحرر من الأنانية ومن التمدّية اللفظية. العقل المنور بالتأمل والمستعد

للعب مع الإيقاع الشرعي للمفاهيم. لعبة الخرز (الكريات الزجاجية).

بدأت (لعبة الكريات الزجاجية) – الأستاذ لودي – عام 1931 وانتهت بعد أحد عشر عاماً، ونشرت بعد اكتمالها بستة أشهر، ولكن في سويسرا وليس ألمانيا. «في مقابل العالم الحالي كان عليَّ أن أقدم مملكة العقل والروح وأن أبينها حقيقية لا تقهر وهكذا صار كتابي يوتوبيا. لقد سلطت نحو المستقبل ولدهشتي ظهر عالم كاستاليا من تلقاء نفسه. ومن دون معرفتي استكمل داخل روحي». هذا ما كتبه هيسه عام 1955. إن لعبة الكريات الزجاجية هي التركيب النهائي وخاتمة المطاف في فكره المتطور. الخيوط التي بدأت في «سدهارتا» وفي «الرحلة إلى الشرق» وفي «ذئب السهوب» تحاك كلها في رؤية لمجتمع مستقبلي من لاعبي اللعبة الباطنية. و«اللاعبون بالجواهر الزجاجية» نخبة من المتصوفين الذهنيين الذين، طبقاً للنظم الرهبانية في العصور الوسطى، أقاموا معتزلاً جبلياً للحفاظ على القيم الثقافية والروحية. وصلب ممارستهم لعبة الكريات الزجاجية» وصية تشمل المضامين الكاملة لثقافتنا وقيمنا». وتشتمل اللعبة على التلاعب بأرشيف معقد من الرموز والصيغ تعتمد في بنيتها على الموسيقى والرياضيات، ومن خلالها يمكن تقديم المعرفة كلها والفن والثقافة.

«لعبة الألعاب هذه قد تطورت إلى نوع من الخطاب الشامل يتمكن اللاعبون بواسطته من التعبير عن القيم برموز شفافة وإقامة علاقات فيما بينها... لعبة يمكن أن تكون أصولها في حالة فلكية معينة، أو لحن من تسلسل باخ أو عبارة من لايبنتيس أو من الأوبانيشاد، والفكرة الرئيسة التي تنبعث يمكن، حسب موهبة اللاعب وقدرته، إما أن تتطور وتستكمَل أو أن تُغنى بالسجع مع مفاهيم مقاربة. يستطيع المبتدئ متوسط القدرة، أن يقيم من خلال هذه الرموز، توازياً بين مقطوعة من الموسيقى الكلاسيكية وعبارة من القانون الطبيعي، بينما يستطيع الخبير أو المتمكن في اللعبة أن يسحب الموضوع الافتتاحي إلى عدد لا حصر له من التركيب».

الحلم القديم بالشمولية، بتركيب جامع للمعرفة البشرية، بمزيج من التحليل والحدس، والعلم والفن، بلعبة العقل الحر هو حلم محكوم بالتماثل التركيبي والجمالي، وليس بمتطلبات التطبيق والتكنولوجيا. ومرة أخرى على المستوى العقلاني تظل المشكلة دائماً هي ما مدى التركيب الذي تحتاج إليه لعبة العقل؟ فإن لم تكن هناك أهداف أو قواعد شاملة سيكون لدينا تزايد دائم في التخصص والتشتت، وانقطاع في التواصل، و(بابل) من الثقافات، وبنى متعددة للنوع لصالح تعميق الميدان التخصصي. علم

النفس (سيكولوجيا). إذا كان هناك الكثير من التركيب أو مبالغة في الحصار في أهداف اللعبة تنشأ لدينا دوغمائية، وامتثال خانق، وتتفيه متزايد من الاهتمام، وتملق للتكنيك الصرف وبراعة على حساب الفهم. التحليل النفسي (سايكو أنالايسيس).

ويشرح المؤلف أنه في تاريخ لعبة الكريات الزجاجية أدخلت رابطة الجوّابين الشرقيين ممارسة التأمل كرد فعل على البراعة العقلية المجردة. فبعد كل حركة في اللعبة يجب أن تمر فترة من التأمل الصامت، وببطء يتشرب اللاعبون أصول الرموز المستخدمة ومعانيها. ويلخص جوزيف نيخت، أستاذ اللعبة الذي قُدمت حياته في الكتاب، التأثير كما يلي:

«إن اللعبة، كما أفسرها، تحيط باللاعب في نهاية تأملاته مثلما يحيط محيط الكرة بمركزها، وتترك لديه شعوراً بأنه قد حول العالم الفوضوي الاعتباطي إلى عالم منسجم وبنياني».

وستجد الجماعات التي تحاول تطبيق التجارب التخديرية على الحياة الاجتماعية في قصة كاستاليا جميع التفاصيل والمشاكل التي لا بد من أن تواجهها هذه المحاولات. الحاجة إلى لغة جديدة أو إلى مجموعة من الرموز لإعطاء هذا التعقيد الذي لا يصدق حقه وكذلك لقوة الآلية الدماغية عند الإنسان، والأهمية الأساسية لإقامة اتصال مباشر مع القوى المبدعة في مسيرة الحياة من خلال التأمل أو الوسائل الأخرى في تغيير الوعي، والمشكلة المعقدة والمستعصية جذرياً، مشكلة علاقة الجماعة الباطنية بالعالم كله. هل تستطيع المجموعة أن تظل قوة ثقافية وروحية أم أنها يجب أن تنحط من خلال العزلة وعدم الاهتمام إلى مجموعة منعزلة ومغتربة من المثاليين؟

كل نهضة اجتماعية كبيرة أو صغيرة لا بد لها من أن تواجه هذه المشكلة، وجواب هيسه واضح: يحتوي القسم الأخير من الكتاب على ثلاث حكايات، يزعم أن نيخت قد كتبها، تصف حياته في تجسيدات مختلفة. في كل منها يكرس البطل نفسه كلية لخدمة الهدف الروحي ولتحقيقه ليدرك في النهاية فقط أنه قد أصبح عبد أوهامه. وفي «الحياة الهندية» أوضح الأمثلة: يقابل دازا، البراهمي الشاب، يوغونياً[3] يطلب منه أن يبحث عن ماء، وقرب الجدول ينام دازا. فيما بعد يتزوج ويصبح أميراً وينجب أطفالاً ويشن حرباً ويتابع تعليمه ويُهزم ويؤذى ويهان ويسجن ويموت – ويستيقظ قرب الجدول في الغابة ليكتشف أن كل شيء كان وهماً:

«كل شيء قد استبدل مع الزمن، وكل شيء تداخل بعضه ببعض في ومضة عين: كان كل شيء حلماً أو حتى ما بدا منه حقيقة ملموسة، وربما أيضاً كل ما قد حدث سابقاً – قصة ابن الأمير دازا، وحياته كراعي بقر وزواجه وانتقامه من نالا وإقامته مع اليوغوني. كانت كلها صوراً مثل تلك التي قد يعجب بها امرؤ على جدار قصر مزخرف، حيث الزهور والنجوم والطيور والقردة والآلهة يمكن أن ترى وقد صورت بشكل نقوش بارزة. ألم يكن كل ما قد جربه مؤخراً وهو الآن أمام عينيه – هذه اليقظة من الحلم والإمارة والحرب والسجن وهذه الوقفة أمام النبع وسطل الماء هذا الذي حركه منذ قليل مع الأفكار التي كان يفكر فيها – كلها منسوجة من المادة ذاتها؟ ألم تكن كلها حلماً ووهماً و«مايا»؟ وإن ما كان على وشك أن يعيشه في المستقبل ويراه بعينيه ويلمسه بيديه إلى أن يأتي الموت – أكان هذا من مادة مختلفة من نموذج مختلف؟ لقد كانت لعبة وخداعاً، زبداً وحلماً، لقد كانت مايا شكل الحياة الجميل الرهيب الساحر المقنط، بأفراحه وأحزانه المتوهجة».

توصف حياة جوزيف نخت على أنها سلسلة من اليقظات منذ أن (دُعي) إلى الدخول في الهيئة الكاستالية (كلمة نخت في الألمانية تعني خادم) مروراً بالفترة التي قضاها على أنه الأستاذ (ماجستير) لودي حتى تخليه المفاجئ عن الجماعة وعن اللعبة. كاستاليا هي أساساً الرابطة محددة بصيغة مؤسسة اجتماعية. ومرة أخرى يزجنا المخادع في رؤياه الطوباوية المهمة، «لعبة الألعاب»، لمجرد أن يبين في النهاية آنية هذا الشكل والأشكال الأخرى. وبعد أن يصل نخت إلى أعلى المراتب الممكنة في المجموعة يستقيل من منصبه. وينبه الجماعة إلى النقص في علاقتها مع العالم الخارجي ويشير إلى أن كاستاليا، مثل أية صيغة اجتماعية أخرى، محدودة زمنياً. ويشير في خطابه التبريري إلى «نوع من التجربة الروحية التي كنت أمر بها بين حين وآخر والتي أسميها (اليقظة)».

«لم يسبق لي أن فكرت في هذه اليقظات على أنها أدلة على إله أو على شيطان أو حتى على حقيقة مطلقة. ما يعطيها وزنها ومصداقيتها ليس صلتها بالحقيقة، أو أصلها السامي أو قداستها أو أي شيء من هذا النوع، بل واقعيتها. إنها واقعية بشكل مخيف في حضورها وفي حتمية مواجهتها مثل بعض الآلام الجسدية العنيفة أو الظواهر الطبيعية المفاجئة... حياتي، كما أراها، كان يجب أن تكون تخطياً، وتقدماً من خطوة إلى خطوة، سلسلة من العوالم يتم تجاوزها وتترك في الوراء واحداً بعد الآخر تماماً مثلما تكمل القطعة الموسيقية فكرة وتتمتها ثم تخلفها

وراءها، فكرة بعد فكرة، ودرجة بعد درجة دون تعب أو نوم، وعي دائم وكمال دائم في الوقت الحاضر. لقد لاحظت أن هناك، بالتوافق مع تجربة اليقظة، كانت توجد درجات وعوالم وأنه في كل مرة تنتهي فيها مرحلة حياتية فإنها تنشحن بالتعفن وبالرغبة في الموت قبل الانتقال إلى عالم جديد ثم اليقظة ثم البداية الجديدة».

إن الباطني أو الرؤيوي على تعارض دائم مع المؤسسات الاجتماعية أو أنه يظل خارجها، وحتى لو كانت المؤسسة على درجة من الكمال الخيالي، لعبة الألعاب، وحتى لو كانت مؤسسة خلقها المرء بنفسه فإنها تكون أيضاً مؤقتة ومحدودة ومملكة أخرى يجب تجاوزها. ونخت، بعد أن يترك كاستاليا، يتجول على قدميه:

«وكل شيء صار جديداً مرة أخرى، وصار غامضاً وواعداً، وكل ما كان موجوداً ذات مرة يمكن بعثه وإلى جانب ذلك الكثير مما كان جديداً. يبدو كأن عصوراً قد مرت منذ ذلك اليوم. صار العالم يبدو جميلاً وبريئاً ومطمئناً. راحت الغبطة بالحرية والاستقلال تدفق في شرايينه مثل جرعة قوية، وتذكر كم مضى عليه منذ أن أحس آخر مرة بهذا الإحساس الثمين بهذا الوهم الفاتن المحبوب!».

وهذه هي المسألة. قصة هـ. هـ. يقول لنا النقاد إن هيسه هو الروائي المتمرس. حسن. ربما كان؛ لكن الرواية صيغة اجتماعية. والجانب الاجتماعي في هيسه مبسط. ومن جانب آخر فإن هيسه دليل ممتاز إلى التجربة الخدرية وتطبيقاتها. قبل أن تبدأ جلستك مع (ال. اس. دي) اقرأ «سدهارتا» أو «ذئب السهوب» فهما عون لا يقدر بثمن.

ثم حين تواجه مشكلة دمج رؤاك بالروتين البلاستيكي لحياتك ادرس «الرحلة إلى الشرق». ابحث لنفسك عن دائرة سحرية. إن أعضاء الرابطة ينتظرونك من كل جانب. ومع المزيد من الخبرة الخدرية سوف تتمكن من اللغة والإيصال، وستتزايد أفعالك وأفكارك بتعقيد إبداعي حين تتعلم كيف تلعب بالرموز الانضباطية وبالاستعارات ذات المستويات المتعددة. لعبة الكريات الزجاجية.

ولكن عليك دائماً، كما يذكرنا هيسه، أن تظل قريباً من الجوهر الداخلي. التعابير الصوفية، الرابطة، الطاقات الذهنية الغنية حتى الاختناق هي فخاخ قاتلة إن لم يكن اللهب الداخلي مستمراً في تأججه. إن اللهب موجود دائماً بلا شك، في داخلنا وخارجنا ويحيط بنا ويجعلنا نظل أحياء. إن مهمتنا الوحيدة هي أن نظل متناغمين معه.

هل كان هيسه يستخدم مخدرات تغير العقل؟

على الرغم من أن مناقشة الفكرة السابقة لم تكن تعتمد على الإجابة عن هذا السؤال فإن هناك مفاتيح مهمة في كتابات هيسه تجعل الأمر ذا أهمية تاريخية وأدبية. في ألمانيا، أيام كان هيسه يكتب، كانت تجري أبحاث مهمة على المسكالين[4]. وقد ورد ذلك في بحث كيرت بيرنجر «أثر المسكالين». كما أن قسماً كبيراً من الموضوع قد تم تحليله في بحث هاينريش كلوفر «مسكال» وهو أول كتاب عن المسالكين ينشر بالإنكليزية.

وتلبية لطلبنا كتب البروفسور كلوفر، الذي يعلّم الآن في جامعة شيكاغو، ما يلي: «حسب معرفتي، لم يتناول هرمان هيسه المسالكين. لقد أثرت هذا السؤال ذات مرة في سويسرا. ولا أعرف ما إذا كان يعرف، مجرد معرفة، باختبارات المسكالين التي كانت تُجرى تحت إشراف بيرنجر في هايدلبرغ. إنكم تعرفون، طبعاً، أن هيسه – وأسرته – كان على صلة وثيقة بعالم الهند وأفكارها. لا شك في أن هذا الأمر قد أثر في مشاهد عديدة من كتبه».

---

1 إله النار في الديانات الهندية.

2 نسبة إلى الزن.

3 من يمارس اليوغا في الديانات الهندية.

4 نبتة طبيعية تسبب هلوسات مشابهة لعقار L.S.D